مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ فُصِّلَتْ

أ.د خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة فصلت

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة فُصِّلَت

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ
وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

ابتدأت سورة فُصِّلَت بِمْثِلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، فقال تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وكذلك بما بعدها، بسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف.

قال تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة فُصِّلَت ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله الرحمن الرحيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك أوضح تبارك وتعالى بأن كتابه القرآن العظيم صادر ومُنَزَّلٌ منه جَلَّ في علاه، فقال عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فابتدأ البيان بتقرير نزول القرآن الكريم أنه من لَدُنه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فإن مصدر كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو من الله رب العالمين، المتصف بالرحمة التي وسعت كل شيء. بما يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتاب الله القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى، وهو المتصف بالرحمة التي اقتضت أن يرشدكم ويهديكم بكتابه القرآن العظيم ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهذا بيان أيها الناس من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم هو ﴿ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من غير شك ولا ريب ولا مرية في ذلك. وبالتالي فإنه لا يستطيع أحد من الخلق ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله أبداً، وبهذا أظهر سبحانه وتعالى كمال الإعجاز، وأصبح ذلك آية عظيمة على أن القرآن كتاب الله تعالى، بلا شك ولا ريب.

وبهذا أبطل تبارك وتعالى الشك وذلك بتقرير الحق في نزول القرآن بأنه منه سبحانه الرحمن الرحيم، وأفاد هذا البيان كريم رحمته وقدرته وعزته وعلمه سبحانه وتعالى، فقد أولى كتابه بكمال العناية، وأنه ليس محلاً للطعن، كما أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ ممن له كمال الرحمة والعزة والعلم والحكمة، فأنزله على رسوله الأمين محمد صلى

---

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون من طعن فيه زوراً وبهتاناً، وممن كذَّب به، ورماه بما لا يليق به، فنفى عنه بهذا الإعلام القطعي الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهنة. وكَذَّب بذلك جميع مفتريات المفترين، وطعون الطاعنين، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجل، العزيز العليم، الرحمن الرحيم.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ ثم أوضح مصدر التنزيل أنه ﴿ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقد ذكر جَلَّ جلاله صفتي الرحمن الرحيم، لتعطي دلالة بأن إنزال هذا القرآن عليكم رحمة بكم أيها الناس، وأن جميع مضمونه رحمة وهداية لكم، بما يدل على أنكم تُرحمون به في الدنيا والآخرة حال إن تمسكتم به، وعملتم بمقتضاه. ومعنى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أنهما إسمان من أسماء لله تعالى، متضمنان لمعاني الرحمة الواسعة العظيمة، التي تستثير عند المؤمن جانب الرجاء، والأمل، والمحبة لله الرحمن الرحيم، الذي وصف وسَمَّى نفسه العظيمة الكريمة بذلك، بل وتدفع العبد أن يطمع فيما عنده سبحانه وتعالى من الرحمة، لأن ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ اسمٌ متضمنٌ لصفة الرحمة، بما يُقوي رجاء المؤمن في رحمته سبحانه وتعالى. المتصف بالرحمة الواسعة. وهي صيغة دالة على سعة رحمته عَزَّ وجل، وشاملة لكل أنواع الرحمة، وأنها لكل شيء.

ثم تلاه باسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحمن باعتبار الوصف. والرحيم باعتبار الفعل، بإيصال رحمته إلى خلقه. ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهما اسمان متضمنان لصفة الرحمة، بل أعطى تعاقبهما دلالة التوكيد، والمبالغة في الرحمة منه جَلَّ جلاله. مما يدل على كريم لطفه بعباده، فقد وسعت رحمته كل شيء سبحانه وتعالى. ومن جليل رحمته إنزال القرآن رحمة للعالمين، وإرسال المرسلين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ولما قرن سبحانه وتعالى التنزيل بالرحمن الرحيم أكد وبين به عَزَّ وجل أن القرآن رحمة، لما فيه من الهدى، والحق والخير والشفاء، والنور المبدد لظلام الجهل، وظلام الباطل، والذي يأخذ بمن تمسك به إلى سعادة الدارين، في الدنيا وفي الآخرة.

ومن دقائق البيان الكريم أن نفي الشك والريبة قد ورد من خلال أمرين: الأول: تعيين الذي أنزله وتحديده بأنه ﴿ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والأمر الثاني: حصر إنزاله في أنه من لدنه تبارك وتعالى وليس من غيره ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهو ﴿ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لينفي به كل شك، ويحصر إنزاله من لدنه تبارك وتعالى.

وقد قَدَّم تبارك وتعالى التنزيل ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ ثم تلاه الذي أنزله، وهو الرحمن الرحيم، ثم ذكر القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا التقديم إظهار الرحمة، وتفخيم الإنزال وتعظيم شأنه، ثم ذكر تبارك وتعالى أن الذي أنزله هو ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ أي: أن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى، القرآن العظيم. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. بما يدل على دقته وكمال إعجازه وكمال صوابه وحجته، وعظيم بيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا الحيف ولا الشطط، بل كمال العدل، وكذلك أن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت بذلك أنه صِدْقٌ وحقيقة.

ثم أعقب ذلك كمال الوصف للقرآن الكريم، بأنه ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي: بُيِّنَت ووضِّحت توضيحاً يفهمه الناس، وأن آياته فُصِّلت بالأحكام، والتشريع، والحلال والحرام، والمواعظ، والقصص، والوعد والوعيد. ثم خصه وسماه الله سبحانه وتعالى باسم القرآن ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا ﴾ ثم أشاد باللسان الذي أُنْزِل به ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ليفيد المدح والثناء. فهو باللسان العربي، وباللغة العربية، ليعطي ويبين منزلة التكريم للنبي عليه الصلاة والسلام بأن القرآن العظيم نزل بلغته العربية، كما أن في ذلك بيان وإشادة لهذه اللغة العربية الممدوحة بهذا القرآن العظيم الذي نزل بها. وفيه تكريم للسان العربي، الذي يلزم بهذا الشرف والتشريف العناية بهذه اللغة التي تشرفت بأن نزل القرآن الكريم بها.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بنوع الناس الذين ينتفعون ويستفيدون منه، فقال تعالى ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لقوم يدركون فيعملون بما يعلمون من الحق. والقوم الذين يعلمون: هم الناس الذين زودهم الله تعالى بأدوات العلم، من الحواس والجوارح التي يدركون بها دلالة تلك الآيات، فلم يخلق تلك الآيات لقوم مسلوبي الفكر والتفكر والفهم والفقه، بل لقوم يعلمون ما يُقال لهم. وهذه الصفات البشرية حجة عليهم، فإنه يقابل صفات العلم التي مكنهم منها، يقابلها المعلوم من الآيات والحجج والبراهين الدالة على عظيم قدرته ووحدانية ربكم سبحانه وتعالى أيها الناس. مما يفيد الانسجام والقدرة على التفاعل بين هذا الإنسان وبين ما خلق الله سبحانه وتعالى. مما يفيد أيضاً أهمية الالتفات إلى آيات ومخلوقات الله تعالى، بتدبرها، والتفكر فيها، فإنها تقوي الإيمان، وتقوي علاقة العبد بربه، لما فيها من قوة البيان المحسوس، وكذلك قوة البيان المقروء والمسموع من القرآن الكريم. وتظهر هنا أهمية ذلك في التربية والتعليم.

ومن قوة المغزى أن الله تعالى لم يخص الفرد، بل خص الكثرة ﴿لِّقَوْمٍ﴾ فهذا القرآن من قوة تفاصيل بيانه أنه يكفي لتعديل وتصويب رأي القوم الكثير العدد، بحيث لا يختلفون في صدقه وانتفاعهم به. فضلاً عن قليل العدد، والفرد الواحد. فمن قوة هذا الكتاب أنه يجعل القوم يتفقون ولا يختلفون على أنه كتاب من عند ربهم، لما فيه من قوة البيان، وما تضمنه من علم لا يمكن أن يكون إلا من خالقهم تبارك وتعالى. فَيُقِرُّون بوجوب الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فيصبحوا فيه على رأي واحد من قوة مواعظه وبيانه، ولِمَا فيه من العبر، فلا يختلفون حيالها. لأن الغالب في القوم أنهم يتباينون ويختلفون في الرأي، ولكن من قوة هذا القرآن الكريم فإنهم لا يختلفون عليه، بل يجعلهم يتفقون ولا يختلفون.

ومن دقائق البيان أن السياق لم يخص قوماً دون قوم، بل كان شاملاً لكل قوم أدركوا وعَلِمُوا بهذا القرآن العظيم، فإنهم سيعتبرون بأحكامه، وما فيه من الإرشاد للحلال، والابتعاد عن الحرام، ولما يرون فيه من الحق المبين. وفي ذلك إشارة لقوم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولغيرهم ممن يأتي بعدهم من الأقوام حتى تقوم الساعة. وفي هذا تزكية لمن أخذ بالقرآن وعمل به، بأنه عاقل من العقلاء، فقد عقل الحق وسار على نهجه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وفيه كذلك ذم ومنقصة لمن لم يأخذ بكتاب الله تعالى، بأنه لم يرشد لمصلحته ونجاته، وأنه متابع لهواه، بالتالي فإنه ليس من العالمين ولا من أهل العقول والألباب.

ويضيف سبحانه وتعالى أن من مميزات وأهداف وغايات القرآن الكريم أنه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فإن القرآن الكريم متضمن للبشائر بالخير لمن أطاع، ونذير بالنار لمن امتنع عن طاعة الله تعالى، فجمع بين التبشير والإنذار ﴿بَشِيرًا﴾ وهو الذي يخبر بالخير، وبما يسر من العاقبة الحسنة لمن أطاع ربه والتقى، لأن القرآن مليء بآيات التبشير للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ودانوا بدين الله تعالى، بأن لهم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وعند الموت، وفي قبورهم. وكذلك فإن القرآن مشتمل على النذارة ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: أنه احتوى على التحذير والترهيب للكافرين ولأهل المعصية. بأن لهم العذاب الأليم.

وبالرغم مما تضمنه القرآن الكريم من البشارة للمطيع والإنذار لمن عصاه إلا أن هناك من أعرض، ولم ينتفع بما فيه من التبشير والإنذار، فقال تعالى ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فصد أكثر الكافرين عن هذا القرآن بالرغم مما تضمنه من قوة الحجج والبراهين، وما فيه من الوعد والوعيد، والإنذار لمن صد عنه، وكفر به، والبشارة لمن آمن واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم. بما يفيد: أن القليل منهم أقبل على الإسلام وقبل به، واتعظ بما فيه من الإنذار والتبشير. ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سبب إعراض من أعرض من الكافرين

﴿ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ فعلة إعراضهم أنهم لم يسمعوا الاستماع الذي ينتفعون به. فهم لا يلقون آذانهم للتبصر والفهم عند سماعهم القرآن العظيم، فلم يتأملوه، فسماعهم هو سماع من غير انتفاع، فقد خالطه الاستكبار والعناد، وبالتالي كان سماعهم هو سماع تقوم به الحجة عليهم لما فيه من الوعيد والتبشير. مما يفيد أن الإعراض كان بسبب الكبر الذي يجعل القلب لا يلقي بالاً ولا عناية لما يسمع من مواعظ القرآن، فلا يهتم بما في آياته من الحجج والبراهين، والوعد والوعيد والإنذار، والحق الظاهر المبين. مما يبين أن الذي يستفيد من القرآن الكريم هو من يستمع إليه، متفهماً له، ومتدبراً لمواعظه وأحكامه وتشريعه، ويتواضع لقبول الحق، وأما المستكبر فيأخذه كبرياؤه إلى العناد وسوء المصير.

ثم يخبر الله تعالى بسبب وعلة هؤلاء الذين لم يسلموا من كفار مكة، واستمرارهم في كفرهم. فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فنتيجة التحدي والعناد الذي يؤكد عدم استماعهم الاستماع الذي يبلغ به الانتفاع أنهم يقولون تحدياً وحسداً وتكبراً على الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ ﴾ أي: قلوبنا في جوف أغطية، من الأغلفة المغطاة، فأصبحت ممتنعة ﴿ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ فيؤكدون امتناعهم عن الاتعاظ، وعن الاستماع الذي غايته وهدفه إرادة الحق واختياره على الباطل، بما يفيد قولهم: إن كان الذي جئت به حق أو ليس بحق، فإن قلوبنا ممتنعة عن أن تلقي اهتماماً لِمَا تدعونا إليه، وهو الإسلام. بل زاد تأكيدهم حين قالوا ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ أي: في آذاننا ثِقَل يمنعها من سماع ما تدعونا إليه، وتُكلمنا عنه، وتُسمعنا شيئاً منه، أي: من القرآن الكريم. والوقر هو: الثقل الشديد في السمع، بما يفيد أننا غير مهتمين بما تدعونا إليه، فلا نأبه به، ولا نهتم ولا نكترث بما تدعونا إليه. بما يؤكد أنهم سمعوا الحق، ولكن الحسد والاستكبار جعلهم يعاندون ويكابرون إلى درجة تجافيهم عن الحق بالإعراض عنه.

ثم يزداد العناد منهم، بتأكيد قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام حجاب ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ فإن بيننا وبين استماعنا وتقبلنا لك مانع يحجبنا عن أن نراك وأن تُرينا ما تدعونا إليه، بما يعني قطع التواصل، فلن تصل ولن تُوصِل إلينا دعوتك، ولن نتقبلها، فالحاجب والساتر الذي بيننا قوى في عزل الصلة التي تريدها منا، فلا يمكن إزالة هذا الحاجب. بما يدل على أن هذا الحاجب الذي يقصدونه هو ما ستر قلوبهم عن قبول الحق، فاقطع الأمل من أن يحصل لك منا ما تريد وتبتغي.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ فهي في أغلفة مغلفة لا يمكن أن تَبْلُغها وتُبَلِّغُهَا ما تريد. فاقطع شأنك منا. فقد بلغ الحسد والاستعلاء والاستنكاف مبلغه منهم، إلى درجة أنهم يسترخصون إهلاك

أنفسهم مقابل قبول الحق من الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يفيد خطورة الحسد والكبر والاستعلاء، فإنه حجاب قوي عن قبول الحق، بما يؤكد أهمية اليقظة والانتباه للنفس من هذا الداء والمرض الخطير، فعلاجه بتربية النفس على التواضع، وقبول الحق في جميع التعاملات، ولا يجعل حب الانتصار والأنفة تسيطر على سلوكه ومراده، فيقع في شرور النفس.

ثم يتجهون إلى إعلان الفصل والتولي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فاعمل فيما أنت فيه من دينك ومرادك بنا، ونحن أيضاً عاملون ومستمرون على شركنا، وعلى ما نحن عليه من التصدي لك. فقد جَمَعَت دلالة ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: أي: اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك، قاله الكلبي. وقال مقاتل رحمهم الله تعالى جميعاً: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإننا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينك، فإننا عاملون بما يقتضيه ديننا، ويحتمل خامساً: فاعمل لآخرتك، فإننا نعمل لدنيانا. ذكره الماوردي رحمه الله تعالى[1] فاستوعب البيان الكريم جميع تلك الدلالات بنص واحد، من غير تعارض، بل جميعها متظافرة، تستوعبها الدلالة بكاملها، فاشتمل السياق على جميع ما قصدوه. وهذا من بلاغة القرآن الكريم وجزالة آياته، ورحابتها في احتواء المراد جميعه.

ثم يأتي الرد الحكيم من الله الرحمن الرحيم، بما يقوله لهم الرسول صلى الله عليه وسلم. حيث جاء الرد ممتلئاً بالرحمة، والتواضع مقابل كبريائهم وعنادهم، والتهدئة لعلهم يسلمون لرب العالمين، ويطيعون الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام، فقال عزَّ وجل ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الجاحدين المكابرين ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ إنني بشر مثلكم، أي: مماثل لكم في الجنس البشري، فلا أزيد عليكم بشيء من حيث الجنس، فلست في استعلاء عليكم ولا كبرياء. ثم يأمره الله تعالى أن يبين لهم وجه الاختلاف والتميز في أنه نبي من الله تعالى ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ وإنما أختلف عنكم بما أنزله اللهُ سبحانه وتعالى إليَّ من الوحي، فخصني به، بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام، فلا أترفع عليكم، وإنما اختارني اللهُ سبحانه وتعالى لرسالته. ثم يبين لهم مضمون وجوهر الرسالة بأنها قائمة على توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ فأوحى الله تعالى إليَّ بأن ربكم واحد، بما يفيد ليس له شريك، وبما يبين أن هذه الأصنام التي تُشركونها

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٢/١٥)

مع الله سبحانه وتعالى باطلة فاسدة. مما يقتضي الأمر والشأن منكم أن تتركوها، وتوحدوا لله سبحانه وتعالى في كل شأن وأمر.

ثم ينتقل بهم إلى ما يجب عليهم في أمرين: الأول: الاستقامة والمتابعة والإخلاص ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستقيموا إلى ربكم من غير إشراك به، وذلك بالإخلاص له وحده لا شريك له، فتكون الطاعة وفق ما شرع لكم. وقد أفاد الأمر بالاستقامة، أن دين الله تعالى مستقيماً، لا عوج فيه، وأنه الطريق الموصل إلى الحق والخير في الدنيا والآخرة. وأن من أخذ به سيعيش في استقامة وتآلف وتعاضد مع الحق والخير، وأنه مانع من كل شر، سواء على النفس أو دائرة الأسرة وجميع شؤون المجتمع، لما فيه من الأحكام التي تعمر التعاضد والتآلف بين أفراده. وأما الأمر الثاني: فهو التخلص من ذنوبكم السابقة بالاستغفار ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ فاطلبوا من ربكم أن يغفر لكم ما سلف وسبق من الذنوب. ثم أعقب ذلك التوجيه الكريم بيان خطورة الشرك عليهم ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فالدمار والهلاك لمن أشرك مع الله تعالى أحداً. مما يفيد أنني لم أطلب منكم ما تعجزون عنه، أو أن يتحقق لي به استعلاء وتسلط عليكم. بل أطلب لكم الخير، الذي يتحقق لكم به سعادة الدنيا والآخرة.

ثم يبين سبحانه وتعالى مطالب الاستقامة من خلال نفي الإيمان عَمَّن لم يقم بها ويعتقدها، وإثبات الكفر لهم. وهي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فإضافة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك فإن الذين لا يؤتون الزكاة ولا يؤمنون باليوم الآخر فالهلاك والويل لهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وفي تخصيص الزكاة بالذكر ما يدل على أهميتها، وأنها ركن من أركان الإسلام، فيجب أداء الزكاة لأهلها المستحقون لها، فلا تتأخروا عن أدائها، بل استوفوا المفروض فيها. ووردت الزكاة عامة، لتشمل زكاة الأموال، والتجارة، وزكاة الأبدان، وجميع ما تجب فيه الزكاة. لما فيها من تقوية الروابط بين المسلمين، ولما فيها من العون والمساعدة والتراحم. وذكر ابن كثير الأقوال في معنى ذلك، أي الذين: لا يدينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. ثم قال ابن كثير: هذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير[١]

ثم ذكر تبارك وتعالى وجوب الإيمان باليوم الآخر، من خلال حال من أنكر يوم القيامة، والبعث والحساب والجزاء ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فمن أنكر فلهم الويل والهلاك والعذاب الشديد، ليفيد

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٩٩)

أن الإيمان باليوم الآخر: ركن من أركان الإيمان، فمن أنكره فالويل والهلاك والدمار له. ففي الإيمان باليوم الآخر الاعتراف والإقرار بالحساب والجزاء، وما يترتب عليه من الطاعة والامتثال. كما فيه التذكير بالعودة لله عَزَّ وجل، وأنه سَيُحاسب كل أحد على ما فعل من الخير أو الشر، فيثاب على الخير، ويحاسب كذلك على ما تهاون فيه، وما ترك مما هو واجب عليه. فكل إنسان مأخوذ بما عمل. فالإيمان باليوم الآخر من أقوى وسائل الضبط للمؤمن في جميع تصرفاته، بل ويدفعه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

ثم بعد الوعيد والتهديد للكافرين، وما أمرهم به من الاستقامة على دين الله تعالى، واستغفارهم عما كان منهم من الشرك، وعموم المعاصي يبين تبارك وتعالى حال المؤمنين، فَيُظهر الفرق العظيم بين حال الكافرين المشركين، وبين حال المؤمنين عند الله سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴾ إن الذين اتصفوا بصفة الإسلام، فجمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، فإن لهم عند ربهم ثواباً عظيماً. فالصفة الأولى: هي الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فالإيمان هو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى رباً، وبمحمد رسولاً صلى الله عليه وسلم، وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والمرسلين واليوم الآخر. ثم يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات ثانياً ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيشترك مع الإيمان عمل الصالحات، وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله.

فإن لهؤلاء مقابل إيمانهم وما عملوه من الصالحات ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴾ فإن لهؤلاء الثواب العظيم، الذي من كثرته وتنوعه أنه غير محدود، ولا مقطوع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: غير منقوص[1] بما يفيد الاستمرار في عطائه بحيث لا ينقطع. وفي هذا كرم من الله تعالى لأهل الإيمان والطاعة. فهي حياة لا تنقطع ولا تتوقف، والخير فيها متتالي ومتعاقب، فلا ينقطع ولا يتوقف، بل فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين من أهل الجنة، بمنك وفضلك يا كريم. اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا يا ربنا وخالقنا ومعيننا.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨١/٢٠)

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن آياته العظيمة فيما خلق وأبدع، ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول بذلك للمشركين، حثاً لهم على الإيمان والتصديق وطاعة ربهم، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ يُثبت ويبين سبحانه وتعالى للمشركين ما هم عليه من الكفر، فيأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبر المشركين بما هم عليه من الكفر، بأنهم يكفرون بربهم الذي تعاظمت قدرته، إذ خلق الأرض في يومين ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إنكم فيما أنتم عليه من الشرك قد كفرتم بربكم العظيم سبحانه وتعالى، الذي من عظمته أنه خلق الأرض في يومين. فبدأ البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ ﴾ التي أفادت الاستفهام التوبيخي على ما هم عليه من الشرك، وتقرير أنهم بهذا الشرك قد كفروا بربهم عَزَّ وجل ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ بربكم الذي من عظمته أنه خلق الأرض في يومين ﴿ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فكفركم متعارض مع عظمته سبحانه وتعالى. فكيف يكون ذلك منكم أمام عظمة ربكم سبحانه وتعالى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي الافتتاح بالاستفهام وحرفي التأكيد تشويق لتلقي ما بعد ذلك، لدلالة ذلك على أن أمراً مهماً سَيُلقى إليهم(١) وهذا من دقائق السياق ومقاصده الدقيقة.

ثم أوضح لهم موقع كفرهم ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ وتتخذون نظراء وأمثالاً، فتعبدونها. وهذه المعبودات لم تخلق شيئاً، بل عاجزة عن نفسها. ثم يشير سبحانه وتعالى إلى عظيم جرمهم أمام عظمة ما خلق سبحانه وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فذلكم الذي تشركون معه غيره هو رب العالمين الذي خلق الأرض في

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٨٠٨)

يومين. بما يفيد أين عقولكم التائهة عن الحق الواضح المبين؟ وقد أشار إليهم سبحانه وتعالى بتعظيم وكمال ما خلق عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الذي هو رب السماوات ورب الأرض ما بينهما من المخلوقات. أي: رب العالم العلوي ورب العالم السفلي، وما بينهما. وفي هذا ما يستثير عقولهم حول التأمل في ملكوت الله سبحانه وتعالى أينما اتجهت حواسهم، فإن آيات ربكم عَزَّ في علاه مبثوثة في كل الآفاق، أينما اتجه الإنسان. فقد ورد النص الكريم في سياق عظيم من البيان التعليمي، الذي يُظهر رداءة تفكيرهم، وانحطاط ما هم عليه من الخزي بشركهم بالله رب العالمين الذي خلق الأرض في يومين.

ثم يعزز ويؤكد سبحانه وتعالى آياته بالمزيد من تفاصيل خلقه، فيقول تبارك وتعالى عن الأرض التي خلقها في يومين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فخلق فيها الجبال الثوابت التي لا تتحرك، وجعلها مباركة بما تنتجه من مطالب الإنسان المتنوعة.

بما يفيد كيف تكفرون بربكم الذي خلق الأرض في يومين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾ وهي الجبال الثوابت التي لا تتحرك، وسماها سبحانه وتعالى بالرواسي لقوتها ورسوخها في الأرض، وإرسائها وتثبيتها الأرض، ليلفت الانتباه إلى شكلها وقوتها، وعلة وسبب وجودها. وكذلك عَيَّن موقع تلك الجبال بأنها ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ أي: شاخصة من فوق الأرض، واضحة لكم. بما يثير الاهتمام لها، فأين عقولكم من هذا الخلق العظيم؟ بل ورد ذكر الجبال بصفتها وغايتها من الترسية والتثبيت ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾ ولم يذكرها باسمها، وذلك لإظهار قوتها والهدف من وجودها. وهذا من براعة السياق في الاقتصار على المراد، بما يدل على الإعجاز البياني في القرآن العظيم.

ثم ذكر تبارك وتعالى عظيم امتنانه على العباد بالبركة ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ وجعل هذه الأرض كثيرة الخير والعطاء، بما أوجد فيها من البركة، من إيجاد المنافع التي لا يحصيها الإنسان، وقد أسند البركة له سبحانه وتعالى، لإظهار عظيم قدرته وامتنانه على عباده، بما يستلزم شكره بعبادته وحده لا شريك له، وفق ما شرع في شرعه الحكيم ودينه القويم. ثم أشار سبحانه بعد الإجمال بما أودع فيها من البركة إلى التفصيل الموجز البديع العظيم، فقال تعالى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ وحدد فيها أرزاق العباد ومعايشهم ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ فخلق الأرض وما قدر فيها يكون في أربعة أيام، بحيث يحصل لهم فيها ما يكفيهم، فجمع بهذا البيان جميع ما فيها من الأنعام والحيوان، والأشجار والثمار، والأنهار والدواب، وأرزاق أهلها من الصنائع والتجارة، وعظيم المنافع. وما ينزل فيها من المطر، وما شق فيها من أودية، فقدر أرزاق العباد والبهائم بما أوجد، وفق حاجتهم وزيادة عنه. وفي ذلك شد الانتباه والعقل للتأمل في تلك العلاقة بين ما أوجده سبحانه وتعالى في الأرض وبين حاجة

الإنسان، فجعل في الأرض ما يلبي حاجة الإنسان من كل شيء. وكذلك لفت الانتباه إلى المدة الزمنية القصير في خلق ذلك، بما يُظهر عظيم قدرته جَلَّ جلاله.

ثم بين سبحانه وتعالى مدة وزمن هذا الخلق العظيم، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: وحدد فيها أرزاق العباد ومعايشهم، وما قدر فيها في أربعة أيام. أي: في تتمة أربعة أيام مع اليومين المذكورين سابقاً في قوله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فخلق الأرض وما قدر فيها يكون في أربعة أيام، وخلق الأرض وحدها في يومين. ثم ذكر تبارك وتعالى الغاية من ذلك ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لمن أراد السؤال فهذا الجواب، لإفادة التعليم بالبيان الكريم. كما يشمل قوله تعالى ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ دلالة: أن ذلك وفق حاجة السائلين عن حاجاتهم في الأرض، فلا ينقصهم شيء أبداً. فقدر الله تعالى لهم ما يحتاجونه فيها، فلا ينقصهم شيء البتة. وهذا من كريم إنعام الله تعالى، وأن في ذلك كمال الحلق والتدبير، كما فيه بلاغة البيان الذي استوعبت دلالته مقاصد المعنى بكل كمال وتمام، من غير حاجة لكثرة الكلام. وهذا من بلاغة البيان الدال على أن هذا السياق لا يمكن أن يكون إلا من علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد من مظاهر قدرته، فيقول عَزَّ شأنه ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى قصد إلى السماء بخلقها والارتفاع عليها ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ أنه قَصَدَ وعَمِدَ إلى خلق السماء فسواهن سبع سماوات. وارتفع عليها تبارك وتعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى معنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ ﴾ أنها ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تُعدَّى بالحرف، إي: لا يسبقها حرف، فيكون معناها: الكمال والتمام، كقوله تعالى عن موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ وتارة تكون بمعنى: علا وارتفع، وذلك إذا عُدِّيت بحرف (على) كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وتارة تكون بمعنى قصد. وذلك إذا عُدِّيت بحرف (إلى) كما في هذه الآية[١] فدلالتها مقترنة بالسياق، وبنوع ما قبلها من حرف. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ثم ارتفع إلى السماء ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: بخار الماء المتصاعد، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهو بخار الماء المتصاعد منه

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٩/١)

حين خُلِقَت الأرض[١] مما يبين أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: قال تعالى للسماء وللأرض استجيبا لما أمرتكم به، سواء طائعين أو مكرهين. بما يفيد أنني قضيت بما شئت وأردت، فليس للمخلوق رأي في ذلك، وسواء استجاب أو لم يستجب فإن قضاء الله تعالى متحقق.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فقالت السماوات والأرض: سمعنا وأطعنا، جئنا ممتثلين بما كان منك في خلقنا وإيجادنا يا ربنا، وعلى نحو ما تريد، فلا نعصي لك أمراً. فبين وأوضح ذلك سرعة استجابة وطاعة المخلوقات العظيمة لربها تبارك وتعالى، بما يفيد: يا أيها الإنسان افهم وتعلم من تلك المخلوقات، واستجب لربك، وأطعه وامتثل لأمره بعبادته كما أمرك.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن تمام الخلق، فقال عَزَّ وجل ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فتم بقضاء الله تعالى سبع سماوات في يومين ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فأتم خلق سبع سماوات في يومين، وكان قد خلق الأرض وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام لتصبح ستة أيام. ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وجُمع الخلق في يوم الجمعة[٢] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٣] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بشأن تقدير ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى فيما خلق، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ فأوحى تبارك وتعالى في كل سماء ما شاء وأراد سبحانه وتعالى، مما تكون عليه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وألقى في كل سماء من السماوات السبع ما أراد من الخلق[٤] والتدبير، فاستوفى

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠١/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٥/١٠)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٢)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٣/٢٠)

البيان استيفاء كل ما أراده الله تعالى، فإنه يكون ويسير كما أوحى، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تأخير ولا سبق. فكل شيء يكون ويسير وفق قضاء الله تعالى وتقديره وإرادته.

ومن جميل خلقه وتدبيره ما جعل سبحانه وتعالى في السماء من الكواكب ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم والكواكب، وسماها مصابيح لإضاءتها. وتعني جملة ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ تخصيص السماء الدنيا عن بقية السماوات بالتحسين والتجميل، وأن هذا التجميل والتزيين لمقصد وغاية، وهو من أجل نظر العباد، لتشمل دلالة الزينة لفت انتباه نظر العين إليها بالإبصار فيها، وكذلك تشمل نظر البصيرة بالتأمل والتفكر للاعتبار، والذي يستدل به على عظمة خالق هذا الكون العظيم، فإذا نَظَرَ الناظرُ إليها ببصره هاله وأعجبه حُسْنُها وجمال لونها، وتنوع أحجامها، وكثرتها، مع اختلاف مواقعها وحركتها، واجتماع بعضها، وتفرق بعضها، وإن نظر إليها الناظر ببصيرته حصل له بها الاعتبار الذي يهتدي به إلى الإقرار بأن لهذا الكون خالق واحد سبحانه وتعالى، وأنه عظيم في تدبيره وخلقه، وتشريعه، وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل، واستدل بذلك على عظمته جَلَّ جلاله.

ثم يخبر تبارك وتعالى بحفظها مما لا يريده سبحانه وتعالى ﴿وَحِفۡظٗا﴾ ليشمل الحفظ الكواكب والسماء، سواء من الشياطين أو حفظها من الخلل. فقد استوعب ذلك كمال العناية من الله سبحانه وتعالى بما خلق. ثم يشير ويُشيد سبحانه بعظمة ما خلق، فيقول تبارك وتعالى ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فجميع هذا الخلق هو بترتيب وتقدير من اتصف بالعزة والرفعة، وبالعلم العظيم ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ﴾ ذلك التقدير الذي وضع به كل شيء وفق تقدير محدد. فليس للمخلوقات أن تتصرف خلاف ما قدره الله سبحانه وتعالى لها ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فذلك التقدير والترتيب هو تقدير ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وأفاد ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء. فشمل جميع المخلوقات، فلا يغيب عن علمه شيء من الكون. مما يستوجب على العباد إفراد ربهم بالعبادة، وفق ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء. فمن كانت هذه عظمته في آيات خلقه فإنه على إرجاع العباد بالبعث بعد موتهم لقدير.

وقد أفادت بُنية اسم ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وعلمه. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي له العلم المطلق. فإن بنية ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ تفيد كمال العلم الذي لا يغيب عنه شيء أبداً، حتى ما يكون في الضمائر، والسرائر، والنوايا. فلا غيب على

الله تعالى. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من قوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى. وبهذا قرر سبحانه وتعالى كمال قدرته مع الإفادة بعظيم عزته وعلمه سبحانه وتعالى.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

بعد أن أقام سبحانه وتعالى الحجج على المشركين، فلم يبق لهم إلا التهديد بالإنذار. فيوجه الله عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينذر هؤلاء المشركين العاصين بصاعقة تحل عليهم من ربهم عَزَّ وجل ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعد ما تبين لهم الحق الذي أوضحناه لهم، أنذرهم بأن نُنَزِّل عليهم صاعقة من العذاب، كما حصل لمن سبقهم من المكذبين بالرسل. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ قيام الحجة الواضحة البينة، بما لا يدع مجالاً للإنكار. وهذا من رحمة الله تعالى، بأنه يبدأ عباده بالبيان وإقامة الحجج، فإن أعرضتم وكذبتم بما جاءكم من الحق والبراهين ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾ فإن ربكم ينذركم ويحذركم من أن تصيبكم ﴿ صَٰعِقَةً ﴾ وبالتالي جمع الإنذار الإعلام مع التحذير والتخويف من العاقبة التي تضمنها الإعلام الذي أنذرهم من وقوع العذاب بهم، وهو ﴿ صَٰعِقَةً ﴾ التي تعني العذاب المهلك السريع. فيجتاحكم جميعاً أيها الكفرة المعاندين، ويستأصلكم هذا العذاب برمتكم، فإذا أنتم خامدون. ثم عَيَّن لهم العذاب، بأنه مماثل لِمَا نزل بقوم عاد وثمود ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فقوم عاد أهلكهم الله تعالى بالريح العاتية، وأما ثمود فقد أهلكهم الله تعالى بالصيحة والرجفة. مما يبين أن الصاعقة تدل على قوة العذاب الذي يصعقهم فإذا هم خامدون.

ثم يشرح ويوضح تبارك وتعالى ما كان من تلك الأقوام المكذبة: التي هي: عاد وثمود، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فذكرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاءت الرسل إلى عاد وثمود ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: وهم مقبلون عليهم بالإعلام والبيان، وكذلك ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي: ومدبرين عنهم لعدم مطاوعتهم وقبولهم رسالة رب العالمين، وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ تعليل لسبب الصاعقة التي أصابتهم بالهلاك. فقد جاءتهم رُسُلهم بكل وجه من الأساليب التي ترغبهم وتنذرهم، ولكنهم امتنعوا.

بما يفيد كثرة المحاولة معهم، حيث أفاد قوله تعالى ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي: أتت آباءهم، ومَن كان قبلهم[١] ويفيد كذلك تكرار الدعوة، مرة بعد أخرى ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ مقبلين عليهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ مدبرين عنهم، لعدم قبولهم. ولإفادة الإتيان من كل باب وجهة، لإظهار المبالغة من الرسل في دعوتهم إلى الحق. كما يفيد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: مَنْ أُرسِل إليهم، وإلى من قبلهم بأن لا تعبدوا إلا الله[٢] مما يفيد أن المرسلين لم يروا منهم القبول، بل رأوا منهم الامتناع والصدود، فكرروا عليهم ما ينجيهم من عذاب ربهم سبحانه وتعالى، ولكنهم أبوا وامتنعوا.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما تضمنته رسالة المرسلين، وهي ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: وحدوا ربكم وأخلصوا العبادة له وحده لا شريك له. فأجاب هؤلاء الكفرة المشركين بما قاله سبحانه وتعالى عنهم ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ لو أراد الله تعالى إبلاغنا بشيء لأرسل لنا ملائكة، فتحججوا استكباراً من أن يكون المرسلين من البشر. مشترطين أن يكون المرسلين لهم من جنس الملائكة. فقالوا: لو أراد الله تعالى شيئاً لأرسل لنا ملائكة، ولم يرسل لنا بشراً مثلنا. فيطلبون رسولاً من غير جنسهم البشري، بأن يكانوا ملائكة. ولو حصل لهم ما طلبوا لأظهروا الشك فيهم. كما أن في مطلبهم هذا تعدي على مراد الله تعالى وسنته في المرسلين بأنهم من جنس العباد. وقد أوضح ذلك سبحانه وتعالى في سورة الأنعام، وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٧/٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٦/١٥)

مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فلو نزلنا مع الرسول من البشر ملكاً، لكان على هيئة وصورة رجل، حتى يستأنسون له، فيخاطبهم ويخاطبونه وينتفعون بما أُرسِل به، لأنهم لن يطيقوا رؤية الملك بصورته التي خُلق عليها، فإن قُوَاهُم البشرية لا تتحمل رؤية الْمَلَك على صورته، ولأصابهم الذعر والخوف، فتنتفي المصلحة من إرساله. ولهذا سيكون الملك على هيئة رجل فيما لو أرسله الله تعالى فشاهدوه. وهنا يحصل لهم اللبس الذي هو الخلط، والذي كانوا هم سبب فيه، فإن كان رجلاً قالوا: هذا رجل من البشر، وليس بِمَلَك، وإن كان ملكاً لم تستطع قواهم رؤيته والتعامل معه، فخلطنا عليهم بتخليطهم على أنفسهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[١] وهذا يدل على أن الإنسان خُلِق على هيئة، وخُلقت الملائكة على هيئة أخرى، فلا يستطيع الإنسان أن يستوعب ما يخرج عن قدرته، لهيبة صورة الملائكة، وهيئتهم، وقوتهم التي تختلف عن عالم الإنس، فلا يتحمل الإنسان رؤية ما لا يطيق، ومن جانب آخر أن الإنسان يأنس لمثله، ولمن سخره الله تعالى له، وهذه من رحمة الله تعالى وقدرته العظيمة، فلم يجعل الله تعالى عالم الملائكة كعالم الإنس، ولا كعالم الجن، وبالتالي لو كان الْمَلَك على هيئته لأنكروا عليه، وقالوا: لست ملكاً، وإن جاء الملك على هيئة بشر أنكروا أيضاً عليه، وقالوا: لست بملك، لأنه على هيئة بشر. فحصل لهم اللبس كما لَبَّسُوا على أنفسهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فكان الأولى لهم قبول رسالته صلى الله عليه وسلم لما فيها من الآيات والحجج والمعجزات الدالة على نبوته قطعاً صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ حتى يشكوا، فلا يدرون أملك هو، أم آدمي؟ فأضللناهم بما به ضلوا، قبل أن يُبعث الملك[٢] فالأولى القبول مع الشكر لله تعالى، خاصة وأنهم يعرفون رسولهم صلى الله عليه وسلم معرفة حقيقة، من عدالته، وكمال أخلاقه، وأمانته.

وفي قولهم ﴿ لَأَنزَلَ ﴾ دليل على أنهم مدركون بأن الملائكة في السماء، وحضورهم يكون بالإنزال، ويؤمنون بأن الله تعالى ربهم، حين قالوا ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ ولكن مشكلتهم في الإشراك بالله تعالى غيره. مما يبين أن الشرك كفر، لا يقره الله سبحانه وتعالى. مما يدل ويبين أن خطورة الشرك، وخطورة العناد، وخطورة الجهل، وعدم التواضع للحق، فإنه يحرم الإنسان من الخير، ويُورده المهالك.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٩/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٣)

ثم يحسم هؤلاء المشركين أمرهم مع المرسلين بما قاله الله تعالى عنهم، إذ قالوا للمرسلين ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فإنا بمضمون رسالتكم منكرون لها، ومكذبون بها وبكم، وغير مصدقين بما جئتم به. فهو جحود وعناد أمام البينات والحجج التي أتت بها الرسل من الله سبحانه وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شأن كل من قوم عاد وقوم ثمود، وبما كان منهما، فافرد كل قوم ببيان مستقل، فقال سبحانه وتعالى عن قوم عاد ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ فأما شأن قوم عاد الذين كذبوا رسولهم هود عليه الصلاة والسلام، فقد استكبروا ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ تكبروا عن أن يؤمنوا، وأن يمتثلوا لما جاء به رسولهم، بل امتد تكبرهم إلى كل موطن يحلون به في الأرض، بما يدل على قوة الاستكبار عندهم. ثم علل تبارك وتعالى استكبارهم ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ فقد كان استكبارهم بغير وجه حق. فيكون الذي منعهم من الانقياد لدين الله تعالى هو الكبر. لأن المستكبر يدرك الحق ويعرفه، ولكنه يأنف من قبوله، فيجحده، ولا يقبله، وينكره بغير وجه حق، ويعاديه، ويرميه بما في نفسه من الكبر. بل وصف الله تعالى كبرهم بالمبالغة ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ففي إلصاق وصفه بالأرض على رحابتها، ما يفيد امتداد كبريائهم بما هم فيه من النعمة إلى كل موطن يحلون به من الأرض، فليس خاص بموقعهم فقط. فأين ما حلوا كان الكبرياء لباسهم ورداءهم. كما أفاد قوله تعالى ﴿ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ المبالغة في استكبارهم، ففي نفي الحق عنهم دليل على مبالغتهم في الطغيان الذي لا يراعي أي حق. ودليل ذلك ما بعده من البيان.

ومن أدلة تكبرهم في الأرض بغير حق هو ما كان منهم، حيث قال تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فاغتروا بما هم عليه من قوة الأبدان وسلامتها، وقوة ما رزقهم الله تعالى من الخير، وما شيدوا وبنوا ﴿ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فيتساءلون تساؤل الاستعلاء والتحدي: هل يوجد من هو أشد قوة من قوتنا وإرادتنا، بما يفيد قوة الاستكبار الذي لازمه العناد، والتباهي، والتظاهر بالقوة، إلى درجة أن قالوا هذا لرسولهم عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أن الطاغية يتباهى بما عنده من الخير، قاطعاً بأنه هو الذي أَمَدَّ نفسه بما هو فيه من الخير والنعمة. بينما المؤمن المتواضع يرى أن الله تعالى هو المعطي، فينكسر لربه سبحانه وتعالى ويتواضع، ويخاف أن يأخذ الله تعالى منه ما أعطاه إن حصل منه الكبر والبطر.

ثم يرد الله تعالى، ويوجه عباده إلى أن القوة له سبحانه وتعالى، وأنه هو المعطي، وأن ليس هناك قوة أقوى من قوة الله تعالى، فهو القاهر فوق عباده بعظمته وقهره وجبروته لمن عصاه، فيقول عَزَّ وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أولم يعلموا بأن الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وقدرة عليهم وعلى غيرهم، وعلى الكون كله. وقد أفاد قوله سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أهمية الرؤية بالتبصر والتأمل، فإنه يقود الإنسان للحق، ولزومه. ومن دقائق البيان أن ورد الجواب من الله تعالى بصيغة السؤال الاستنكاري، والتوبيخي على تباهيهم بما أنعم الله تعالى به عليهم من القوة، فهو الذي منحهم القوة بقدرته وفضله سبحانه وتعالى. وهو سؤال استنكار عن عدم تأملهم واسترشادهم للحق وقبوله بما يرون من شدة قوة الله تعالى فيما خلق، وفي قوة تدبيره، وفيما هلك ويهلك ويعاقب.

وقد أشار سبحانه وتعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾ أنه ليس هناك خالق لهم غيره تبارك وتعالى. وكذلك أشار بهذا البيان إلى أنه هو الذي منحهم الذي هم فيه من النعمة والقدرة، فإن الذي منحهم بفضله وسلطانه النعمة والقوة والكثرة من الخير، فإنه هو القادر على أن يسلبهم ما أعطاهم، وأنه قادر على إبادتهم وإهلاكهم والقضاء عليهم. ومن فضل الله تبارك وتعالى أن وجههم إلى أن يتبصروا في أنفسهم وفيما حولهم، ليروا أن الله تعالى هو صاحب القوة التي هي أشد من قوتهم، والتي لا تضاهيها قوة. فهو الذي منح غيره من المخلوقات نعمة القوة بما تستعين به على قضاء حوائجها، وعلى أداء الحق، وليس للبطر على الحق ومعاندته ومحاربته، وإنكاره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى معرفتهم بحججه سبحانه وتعالى، وأنهم أيقنوا بصحتها وسلامتها وقوة دلالتها، ولكنهم جحدوا بها لقوة استكبارهم ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ فقرر تبارك وتعالى أنهم كانوا بمعجزات ربهم التي زَوَّدَ بها رسولهم الذي أُرسِل إليهم ينكرونها جحوداً منهم. لأن الجحود يفيد إظهار خلاف ما استقر في النفس، أي أنه استقر في نفوسهم صدق حجج الله تعالى، فاستيقنتها أنفسهم، ولكن قوة الاستكبار في نفوسهم جعلتهم يكذبون بها وينكرونها. مما يفيد خطورة الكبر على الإنسان، مما يستوجب على المرء أن يتنبه لذلك، وأن يوطِّن نفسه، ويهذب سلوكه وفكره على التواضع، وأن يكسر كبرياءه من الأنفة على قبول لحق، ويعتاد ذلك في حياته.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عقابهم من الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فأرسل الله تعالى عليهم ﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا ﴾ أي: ريحاً شديدة في قوتها وسرعتها، فأصبح لصوتها

صرير من قوتها وشدتها، فكانت ذات صيحة من قوتها التي أهلكهم الله تعالى بها ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي: أيام سيئات، مشؤومات بشدة البلاء من العذاب، وتتابعها عليهم لأيام وليلي حتى أهلكهم الله تعالى بها. وأن الغاية من هذا العذاب الشديد هو ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فهذا العذاب الدنيوي من أجل أن يتذوقوا عذاب الخزي الذي هو عذاب الذل والهوان والانكسار في الحياة الدنيا، وأما عذاب الآخرة فيقول تبارك عنه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾ وأما عذاب الآخرة فهو أعظم عذاباً وهواناً وخزياً وذلاً مما حصل لهم في الحياة الدنيا ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا أحد يستطيع أن ينصرهم ويدفع عنهم ما هم فيه من العذاب. فهم في حالة من الذل والخزي، إذ عرفوا أنه لا أحد يستطيع أن ينصرهم ويدفع عنهم ما هم فيه من العذاب، أو يخرجهم من هذا العذاب الشديد. ليكون حالهم في الآخرة أشد قسوة على قلوبهم، فيجتمع عليهم العذاب الحسي الجسدي، والعذاب النفسي القلبي. وفي هذا تحذير لكفار مكة، ولكل كافر من يوم القيامة.

ثم ينتقل البيان إلى شأن قوم ثمود، فقال تعالى عنهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ وأما ثمود، قوم نبي الله صالح عليه السلام، فابتدأناهم بالإرشاد ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ فقد أوضحنا لهم سبيل الحق وطريق الهداية والرشاد الذي جاءهم به نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ فآثروا واختاروا ﴿ٱلۡعَمَىٰ﴾ المضاد للهدى، أي: الذي هو الكفر، فاختاروه بأنفسهم ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي يمثل الغنيمة والسلامة والرشاد الذي جاءهم به رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام. فَسَمَّى اللهُ تعالى كفرهم بالعمى، لأنه ظلام، وأن حالهم كحال الذي اختاروه، فصاحبه في متاهة من الضلال، حيث عقروا ناقة الله تعالى التي جعلها الله تعالى آية عظيمة، ومعجزة ظاهرة واضحة. وكلمة ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ تمثل دلالة دين الله تعالى أنه هداية ونور، يصل بالمهتدي به إلى الخير والرشاد في الدنيا والآخرة. وقد أفادت دلالة ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ﴾ التفضيل والاستحباب والاختيار، بأن اختاروا ﴿ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ فلم يجبرهم أحد، بل كان بمحض إرادتهم. ثم يخبر تبارك وتعالى بما أصابهم من العذاب المهين الشديد ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فعاقبهم الله تعالى بالعقاب الشديد، بأن أخذتهم صيحة ورجفة العذاب الشديد ﴿صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهو العذاب المهلك السريع. ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ الذي أهانهم، وكسر شوكتهم، فتحقق فيهم

الذل والهوان بما أصابهم من صاعقة العذاب الشديد. ثم علل سبحانه وتعالى ذلك العذاب بأنه ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فبكسبهم الكفر وعاقبته نالوا ذلك العقاب العظيم. بما يبين عدل الله تعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً إلا بما كسب من الإثم والكفر والضلال. مما يستوجب أن يتعظ بذلك من كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة. بل من عدله عَزَّ وجل أنه نَجَّا المؤمنين من ذلك العذاب المهين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فمن بين أظهرهم نجينا المؤمنين، وهم نبي الله صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، الذين يتقون الله، ويتقون عذابه بالطاعة والامتثال. مما يبين منزلة المؤمنين الذين يتقون الله تعالى. وهذا من رحمة الله تعالى، إذ يرشد الناس، ويحذرهم، ويرغبهم في الخير، ويحذرهم من المعصية.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى عقاب الدنيا لمن كفر، ينتقل السياق إلى شأن عقوبة جميع الكفرة يوم القيامة، وما أعده الله تعالى لهم من عذاب النار والخزي والمهانة، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ واذكروا يوم يجمع الله تعالى أعداءه الكافرين، فيحشرهم جميعاً إلى النار. فَيُذَكِّرُ الله تعالى عباده بحال الكفرة يوم القيامة، عندما يُحشرون إلى النار، فَيُسَاقُون إليها سوقاً شديداً، وهم يوزعون، وذلك بجمع أولهم على آخرهم. وفي هذا موعظة للناس أجمعين بما سيكون عليه حال الكفرة في الآخرة. فَقُل وذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم المعرضين عن دين الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ والحشر هو الجمع لهم، ثم سوقهم سوقاً مُذلاً مهيناً، لما في دلالة الأمر من الإهانة والإذلال في حق المجرمين. واذكر يوم الحشر، عندما نحشر التابع والمتبوع، والمستكبر والمستضعف، والعابد والمعبود، فجميعهم قد تم جمعهم يوم

الحشر. وسماهم تبارك وتعالى ﴿ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ بما يفيد ويبين شدة بغض الله تعالى لهم، وشدة ما سيجدون من العذاب، فأفاد ذلك شدة المبالغة في كره الله تعالى وبغضه لهم.

ووصف حال الملائكة الذين هم خزنة النار، بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ أي: بأنها تحبس أولهم على آخرهم، ليتتابعوا ويتلاحقوا، وفق تنظيم دقيق. فهم مُنَظّمُون ومنتظمون تنظيماً غاية في الدقة التي تمنع عنهم الفوضى، لأن جملة ﴿ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ من وَزَعَ، بمعنى: كَفَّ. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: يُقال: وزعته عن كذا: كففته عنه، فقوله تعالى ﴿ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم لم يكونوا مُهملين ومبعدين[١] فهم منظمون تنظيماً يَكُفُّهُم ويمنعهم عن مجاوزة كل واحد منهم ما هو فيه من السوق في ذل ومهانة. ليدل على قوة الطاعة والامتثال، والذل الذي يعيشونه.

ويستمر البيان الكريم في وصف حال أعداء الله عَزَّ وجل، فيقول تبارك وتعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ حتى إذا ما وصلوا إلى النار وأُوقِفُوا عليها ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أنطق الله تعالى حواسهم بما اجترحت وكسبت من المعاصي ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فتنطق جوارحهم وتتكلم بما كان منها في الدنيا من المعاصي. وفي تخصيص السمع والبصر على اعتبار أنها أقوى وأهم الحواس في التلقي والتعلم للحقائق والبراهين والحجج. ثم يلي ذلك الجلود باعتبارها تمثل بقية الحواس، وهنا لم يتم ذكر الألسن، لأنها المعبرة والناطقة بما يريد صاحبها، فتوقفت، ليشهد كل شيء من الإنسان بما كان منه، فالسمع ينطق بما سمع من الحق، ولكن صاحبه لم يمتثل، وبما سمع من الباطل، واتبعه، ويشهد البصر بما رأى من الحق، ولكن صاحبه لم يمتثل به، وبما رأى من الباطل، واتبعه، وكذلك جلودهم حيث تذكر ما كان منها في المعاصي، والإحساس، ويدخل في ذلك الفروج، وكل جزء من بدن الإنسان. فتشهد بما كان من أصحابها من الباطل والضلال.

وقد ابتدأ البيان الكريم بحرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ لإفادة أنه عند الانتهاء والوصول إلى موقع النار، وموقع الاعتراف. كما أفادت ﴿ إِذَا ﴾ معنى: الوقت، وهو الحين. والمفاجأة. وأفادت كلمة ﴿ جَآءُوهَا ﴾ أي: وصلوا وصولاً إلى مكان الحشر إلى النار. وأفادت ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ كمال العدل، وكمال القدرة من الله تعالى، فأخذهم

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٥٢١-٥٢٢)

إلى العذب بما كان منهم، وأن الذي شهد عليهم هو منهم، وليس خارجاً عنهم. بل ملتصق بهم، وهو المباشر للفجور. كما أفاد ذلك أن المباشر وصاحب الإرادة هو الإنسان نفسه، بما يمثله قلبه وعقله. وأن الحواس في الإنسان مؤتمرة بما يأمرها صاحبها، من خير أو شر. كما أفاد ذلك فضيحتهم في الآخرة، كما كانت فضيحتهم في الدنيا بمعاداة الحق.

فإذا شهدت عليهم حواسهم بما كان منهم، عاتبوها على تلك الشهادة والاعتراف بما حصل، فقال تعالى عنهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيقول هؤلاء الذين يُحشرون إلى النار معاتبين جلودهم، بسؤال استنكار: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لماذا شهدتم علينا؟ سؤال عتاب واستنكار، لماذا أدليتم بالشهادة علينا. وفي تخصيص الجلود بالعتاب ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لأنها شاملة لجميع أجزاء البدن بما في ذلك بقية الحواس. وهنا تتجلى قدرة الله تعالى في إنطاق كل شيء. ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ فأسندوا أمر القدرة على الإنطاق إلى الله تعالى، بما يفيد لا حيلة لنا في الاختيار، وبما يفيد كيف لا نستجيب لله تعالى؟ وكيف نعصيه؟ مؤكدين ذلك بإبانتهم لعظيم قدرة الله عزَّ وجل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فإن الله تعالى أنطق كل شيء يريده أن ينطق، فلا عصمة لأحد أمام قدرة الله تعالى. مُستدلين على ذلك بالحقيقة العظيمة ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن الذي بقدرته أنشأكم وخلقكم أول مرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ورجوعكم إليه لمحاسبتكم، فقد كان الأولى منكم طاعته وليس أن تعصوه. بما يفيد لماذا تستنكرون ذلك؟ ولماذا تستنكرون نطقنا وشهادتنا؟ والله سبحانه وتعالى هو الذي خلقكم أول مرة، ثم يعيدكم إليه لمحاسبتكم ومجازاتكم. فاستنكاركم في غير مكانه، إذ كان الأولى ألا تستخدموا نعمة جوارحكم في المعصية. مما يبين أن عالم الآخرة ليس كعالم الدنيا.

وكذلك تقول لهم أعضاء أجسادهم وحواسهم عندما عاتبوهم ولاموهم على النطق بالشهادة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ما كنتم تتكتمون وتطلبون الستر بالكف عن معاصيكم وكفركم، من أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم، فكنتم تجاهرون، ولا تُبَالُون بشهادة أعضاء أجسامكم عليكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فظنكم واعتقادكم الفاسد بأن الله تعالى لا يعلم كل ما تعملون من الفجور ﴿ وَذَٰلِكُمْ

ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فهذا الظن السيء، الذي لا يليق أن تعتقدوا به في ربكم قد ﴿أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ جعلكم من فئة الخاسرين. فجعلكم تخسرون الآخرة. وأصبحتم في النار تُسجرون، فخسرتم ثواب الآخرة ونعيمها، وأصبحتم في الهلاك الذي خسرتم به الآخرة. وفي هذا بيان وإنذار لما سيكون عليه حال الكافرين يوم القيامة، ولمن تمادى في معصية الله تعالى بظنه السيء.

وبالتالي ليس أمامهم إلا العذاب ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ فإن تصبروا على ما أنتم فيه أو لا تصبروا، فليس غير النار مصيركم ومثواكم الذي تعيشونه، فليس لهم غير ذلك ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أي: وإن يعتذروا ويطلبوا إرجاعهم إلى ما يحبون، من خلال الْعُتْبَى. أي: اعترافهم ورجوعهم عن إساءتهم، واعتذارهم فلا قبول لاعتذارهم، الذي هو استعتابهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن معنى الْعُتْبَى: هي رجوع المعتوب عليه، إلى ما يُرضي العاتب. أي: من رجع عما أساء به، فكأنه لم يسيء[1] ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ فلن يُقبل استعتابهم. بما يفيد ليس لهم إلا العذاب المقيم، سواء صبروا على ما هم فيه، أو اعتذروا واعترفوا عما كان منهم. فنسأل الله تعالى السلامة لنا وللمسلمين أجمعين.

وفي هذا دقة في البيان والإيضاح لما سيكون عليه حال الكفرة يوم القيامة، بل ورد البيان بدقائق التفصيل، ليتحقق كمال الوعظ والإرشاد، وإظهاره للمُخَاطَب بصورة واضحة جلية، وكأنه يعايش ويرى الموقف، وهذا من بلاغة القرآن العظيم في نقل الحدث، كأنما يره الْمُخَاطَب ويعايشه. وهذا من رحمة الله تعالى إذ يبين للعباد الحقائق التي يجب أن يدركوها، وأن الله تعالى حذرهم، ووعظهم وأرشدهم، فلا يلوم كل أحد إلا نفسه.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٨٣٢)

﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فبعد بيان الله تعالى لأحوال الكفار يوم القيامة، يخبر سبحانه وتعالى بعقابه الدنيوي للذين كفروا استكباراً، واستعلاء، فجحدوا الحق الظاهر المبين. فقال تبارك وتعالى ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فبسبب إعراض هؤلاء المكذبين، وجحودهم للحق الظاهر المبين، ولم يعد فيهم مطمع للهداية، فقد عاقبهم الله تعالى في الدنيا بأن سلط عليهم قرناء من الشياطين، كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ ليتبين أن الله تعالى قد يطبع على قلب المتمادي في الإعراض عن دينه، بجحوده له، بالرغم من الحجج الظاهرة. فقال تعالى ﴿وَقَيَّضۡنَا ﴾ أي: دبرنا وهيئنا وأوكلنا ﴿لَهُمۡ قُرَنَآءَ ﴾ نظراء، مماثلين لهم في الجحود والكفر والمعصية من الشياطين ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم ﴾ أي: حسنوا بالتجميل والترغيب ﴿مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ من أمور الدنيا المشتملة على المعصية، فحببوا لهم الضلال والشر ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ أي: ما بعد مماتهم، بأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء.

ومن فوائد هذا البيان: أن التزيين يجعل المرء يرى الشيء القبيح، أو الذي عاقبته العذاب، يراه حسناً، ومرغوباً ومطلوباً، فتميل إليه النفس وتشتهيه، فيزين لهم القرناء الاستمرار في العناد، والفخر، والاستكبار، والشرك والفجور. فهو قلب للفهم، وقلب في رؤية الحقائق. وقد أورد الله سبحانه وتعالى موطن التزيين عاماً ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ ليشمل تزيين الشرك، والمعاصي، والجرأة، بأن نسبوا لله تعالى ما لا يليق به من الولد والصاحبة، وتكذيب المرسلين ومعاداتهم، وجحود الحجج، وغير ذلك. وتزيين الاستكبار والعناد في نفوسهم، وجميع المعاصي التي لا حدود لها. وكذلك تزيين الكذب بما هو خلفهم من البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار. فيزيدهم كفراً وجحوداً على ما هم عليه من الكفر، والتمسك به، حتى يحل عليهم العذاب الشديد في الآخرة، وذلك جزاء وفقا. مما يبين الحذر من التمادي في المعصية، والتهاون فيها. فقد يُعَاقَب الإنسان بمحبتها والعكوف عليها. وفي هذا تحذير من الله تعالى، ليدل على رحمته بالعباد، حتى لا يقعوا في غضبه سبحانه وتعالى، ومعاقبته لهم.

وبهذا التزيين من القرين، ومتابعته يتحقق فيهم العذاب. قال تعالى ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: حق وثبت عليهم العذاب ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: في جملة الأمم السابقة التي ماثلوهم في الكفر ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ من كفرة الجن وكفرة الإنس، وبذلك تحققت فيهم خسارة الآخرة، وما فيها من النعيم ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فاتصفوا بصفة الخسارة العظيمة في الدنيا، وخسروا في الآخرة، فقد خسروا رضوان الله تعالى ومرضاته، ونعيم الجنة، وأصبحت النار هي قرارهم. وفي هذا تحذير شديد من الله تعالى، وموعظة عظيمة وبليغة، من أجل أن يتقي الإنسان غضب الله تعالى ومقته، وعقوبته العظيمة. مما يلزم كل إنسان أن يطيع ربه تبارك وتعالى، ويمتثل له بالطاعة والانكسار. وأن هذا الوعظ والبيان هو من رحمته سبحانه وتعالى بالعباد، حتى لا يقعوا في غضبه سبحانه وتعالى وعقابه لهم. مما يؤكد الحذر من التمادي في المعصية، والتهاون فيها. فقد يُعَاقَب الإنسان بمحبتها والعكوف عليها.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة تمادي الذين كفروا، وهو الاستهزاء بكلام رب العالمين، والنهي عن سماع القرآن العظيم، فقال تعالى عنهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ فيقول كفار مكة لبعضهم البعض ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ يحذرون بعضهم بعضاً، بما يعني لا تركنوا إليه، ولا تجعلوا في نفوسكم ما تطمئنون إليه.

وقد نطقوا كتاب الله تعالى باسمه ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بما يؤكد ويوضح انتشار اسم القرآن بين الناس، وأصبح بقدرة الله تعالى أنه لا يُعرَف إلا باسمه ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ليدل على قوة انتصاره بعزة الله تعالى وقدرته. وأنهم أدركوا صحته، وأثره على من يسمعه، وبالرغم من ذلك يحذرون غيرهم من سماعه، بل يطلبون اللغو فيه.

ولذلك فإنهم بعد التحذير من سماع القرآن العظيم، أضافوا طلب معاداته والتصدي له ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أي: صَرِّفُوا وحَرِّفُوا فيه حتى يخرج عن وجهته ومراده وحقائقه، وذلك من خلال الكلام الباطل الذي لا نفع فيه، والذي ينحرف به عن مراده ومقاصده. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن اللغو فيه: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. وقال: والمعنى: لا تسمعوا له إذا قُرِئ، وتشاغلوا عند قراءته، برفع الأصوات، بالخرافات والهذيان والزمل، وما أشبه ذلك حتى تخلطوا على القرآن، وتشوشوا عليه، وتغلبوه على قراءته[1] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: عارضوه باللغو، وهو الكلام الخالي عن الفائدة. وكان الكفار يوصي بعضهم

(١) الزمخشري، الكشاف (١٩٤/٤)

بعضا: أن إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تُلَبِّسُوا عليه قولهم. وقال مجاهد: والغوا فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ[١] ويبين هذا شدة ما كان يعاني ويواجه صلى الله عليه وسلم من التحدي.

وأما هدف هؤلاء من ذلك فهو مغالبة القرآن الكريم، ومغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أملاً ورجاء أن تُسكِتُوهم، وتنتصروا على القرآن وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن ينصرف الناس عنه، ويتخذونه هزواً. مما يثبت أنهم مدركون لقوة القرآن الكريم، وأنه مُنَزَّل من رب العالمين. ولو لم يكن الأمر كذلك لما أخلصوا في محاربته، وتواصوا به، حسداً من عند أنفسهم، واستكباراً وأنفة، لما يرون في ذواتهم من العجب والكبر. مما يبين مخاطر العجب والاستكبار على مسار النفس، وأنه يهوي بها في الشر والدمار، مع علمها بالحق، ولكن استحواذ الكبر شأن خطير.

ثم يزداد البيان إيضاحاً لشدة عذاب هؤلاء المردة المتعالين، والمحاربين لكتاب الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا وعيد لهؤلاء الكفار في عهده صلى الله عليه وسلم، ويدخل معهم غيرهم من الكفرة ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فلنعذبهم عذاباً قوياً ومهلكاً من شدته، مقابل ما كان منهم من الكفر والاستهزاء بدين الله تعالى ومحاربته، والاستخفاف بالقرآن الكريم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ونجازيهم في الآخرة بأسوأ وأنكل مما كان من كفرهم ومحاربتهم لدين الله تعالى. بما يفيد الإنذار لهم، ولغيرهم بالحذر من عقاب الله تعالى في الآخرة، إن لم ينتهوا عن كفرهم، ويمتثلوا ويطيعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى علة وسبب هذا العذاب، إظهاراً لاستحقاقهم لأشد العقوبة وأنكل العذاب وأشده ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فذلك الجزاء المذكور هو لأعداء الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ﴾ وفي التنويه إليه باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لإفادة التعيين والتهويل والتعظيم لفضاعة وشدة نكايتهم. ثم حدد نوعه ﴿ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ ﴾ فالنار المستعرة هي جزاء لهم ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ لهم في النار الخلود الأبدي، الدائم الذي لا ينقطع ولا يفتر فيه عنهم لحظة واحدة، فهو عذاب مستعر، لا ينقطع ولا يتوقف أبداً، جزاء وفاقاً لِمَا كان منهم في الدنيا من الجحود

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٠/٧)

والكفر، ومحاربة دين الله تعالى وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فهذا الجزاء من العذاب الشديد هو لقاء ما كان من جحودهم لحجج الله تعالى وبراهينه على دينه وعلى أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنهم جحدوا الحق وأنكروه، وهم يعلمون أنه الحق الظاهر المبين. فالجحود يعني معرفة الحق وإنكاره. مما يبين أن الله تعالى لا يظلم عباده بشيء من العذاب، وإنما هي أعمالهم يوفيها لهم، لأنهم هم الظالمون لأنفسهم بمعصية ربهم تبارك وتعالى، والعمل بأضداد الهدى والحق.

ثم يخبر الله تعالى بما يقول الكفار عندما يكونون في جهنم يصطلون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ يقولون وهم في جهنم يصطلون ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مبتدئين طلبهم بالاستجداء ﴿رَبَّنَآ﴾ اعترافاً بربهم، وإدراكاً بأنه لا يلبي طلبهم إلا هو، وأنه هو القادر على ذلك ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أظهر وعين لنا الذين سعوا في إضلالنا من الجن ولإنس. حتى نتوطأهم بأقدامنا في نار جهنم.

وفي تقديمهم الجن على الإنس لشدة وقوة ما كان منهم من تزيين الباطل لهم. ثم ذكروا علة طلب إظهارهم وتعيينهم لهم. حتى ننتقم منهم ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ فنطأ عليهم بأرجلنا، ونرفسهم بأقدامنا، انتقاماً منهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ وهذا تعليل لمطلبهم، بأن نجعلهم أسفل أهل النار، نكاية بهم، فيما كان منهم من إضلالنا، فقد دخلنا بسببهم النار. ليتبين من هذا البيان إفادة التحذير، وبأنه يجب على الإنسان ألا يجعل غيره يغريه بالفساد والضلال، فكل أحد مأخوذ بذنبه، وبما كان منه، فليحذر كل أحد عذاب الله تعالى ونكايته، وذلك بطاعة ربه سبحانه وتعالى، والامتثال لشريعته.

ومن دقائق البيان أن ورد طلب الكافرين من الله تعالى مطلبهم بصيغة الماضي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لإفادة تحقق الوقوع، وإظهار المشهد بأقوى ما يكون من التأثير، ولإفادة أنه أمر مجزوم به كما سيكون. كما أن في طلبهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ بيان لقوة الحقد، ولكنهم لا ينتفعون بذلك، فالجميع في النار يصطلون، أينما كانوا منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ
بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

وبعد بيان عقاب أعداء الله تعالى يذكر عَزَّ وجل إنعامه على أوليائه، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ إن الذين صدقوا اعترافاً وإيماناً بأن ربهم الله تبارك وتعالى، ثم أسندوا إلى ذلك القول الاستقامة على دين الله تعالى. فإن الملائكة تتنزل عليهم عند موتهم، واحتضارهم، مبشرين لهم بأن لا يخافوا مما هم قادمون عليه، وأن لا يحزنوا على ما هم ذاهبون عنه من الدنيا. وتبشيرهم لهم بالجنة التي وعدهم الله تعالى بها. وهذا من عظيم كرم الله تعالى أن جعل الملائكة تتنزل عليهم مبشرة لهم عند احتضارهم، ليكونوا في كمال الطمأنينة والفرح والسرور وهم يغادرون الدنيا إلى أول منازل الآخرة.

وقد استهل البيان هذا الإكرام بحرف التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ لتأكيد وتقرير ما بعده من عظيم البيان، ثم أخبر الله تعالى بأوصاف المكرمين من عباده، وهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فأظهروا إيمانهم القلبي بالقول ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فقرروا الإيمان بأن الله تعالى هو ربهم، وليس لهم رب سواه. فآمنوا بالله تعالى رباً، وبالتالي صَدَّقوا بكل ما ورد عن الله تعالى، فشمل قولهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الإيمان بالله تعالى وبجميع ما ورد عنه سبحانه وتعالى، فآمنوا بأركان الإيمان كلها. وأضافوا إلى الإيمان استقامتهم على دين الله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ وأفادت ﴿ثُمَّ ﴾ الترتيب، بما يعني ويفيد أن الإيمان هو الأصل، وهو الأساس وهو القوة، ومنه تنطلق المتابعة وكمال الطاعة.

فلما أثبتوا وثبتوا في إيمانهم انطلقوا بالاستقامة على دين الله تعالى. وأفاد قوله عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ العمل بمقتضى دين الله تعالى من الطاعة. كما أفاد ذلك أن دين الله تعالى مستقيم، لا اعوجاج

فيه، فمن سلكه فقد استقام أمره وشأنه في أمور الدنيا ثم الآخرة. فيكون حالهم هو الجمع بين الإخلاص لله تعالى، ولزوم الطاعة والامتثال لدين الله تبارك وتعالى.

ثم أخبر جَلَّ جلاله عن عظيم كرمه وعنايته بهؤلاء المتقين الصالحين عندما تحين وفاتهم، بأنه ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقد أفاد فعل النزول الهبوط والتكرار ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد رحمها الله تعالى: تتنزل عليهم عند الموت. وقال مقاتل وقتادة رحمها الله تعالى: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال وكيع رحمه الله تعالى: البشرى في ثلاث مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث[1] وقال السعدي رحمه الله تعالى: أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار[2] مما يدل على تناسق تكرار النزول مع حالات البشرى المتكررة. فقد أفاد بناء فعل النزول ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ التكرار، بما يدل على الحفاوة بهم، وذلك بتكرار نزولهم على المؤمن. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة، كما يُشعر به حذف المتعلق في الجميع[3] وبالتالي اطلاق تكرار البشرى على الْمُبَشَّر عند الموت، وفي القبر، وعند البعث. وهذا من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين الذين يستقيمون في طاعتهم لربهم سبحانه وتعالى.

وفي هذا رفع منزلة المؤمن، إذ تتنزل الملائكة من العلو من أجل هذا المؤمن الذي استقام قولاً وعملاً على دين ربه سبحانه وتعالى. وفي هذه البشارة والكرامة المضادة لشأن الكفرة المجرمين، إذ يبشر اللهُ سبحانه وتعالى عباده الذين جمعوا بين الإيمان وبين الاستقامة على الدين بهذا التكريم العظيم. وهذا من عدل الله تعالى وفضله. فجمع منهج الله تعالى بين الترغيب والترهيب، لحث العباد على الطاعة والفوز بالنجاة من النار، ودخول الجنة بسلام آمنين.

ويعلل سبحانه وتعالى نزول الملائكة بأنها من أجل أن تبشرهم وتطمئنهم بتحقق ما وعدهم الله تعالى لهم من الخير والثواب العظيم الذي هم مقبلون عليه ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ والخوف متعلق بالحاضر والمستقبل، فلا تخافوا مما أنتم فيه من ترك الدنيا وما أنتم قادمون عليه من أمور الآخرة. وفي نفي الخوف إثبات السرور، الخالي من أدنى أنواع الخوف ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ والحزن متعلق بما فات مما مضى. فلا تحزنوا ولا تتأسوا على

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٤/١٥) والشوكاني، فتح القدير (٥١٥/٤)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٩٦/٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥١٥/٤)

أمور الدنيا، وما فاتكم منها، وما تركتموه خلفكم، كالأهل والولد، وغيرها مما تحبون من الخير، بما يفيد أن الله تعالى يخلفكم فيها بخير.

ثم تأكيد البشارة بما ينتظره المؤمن، ويعمل من أجله، فتقول الملائكة لهذا المؤمن الْمُبَشَّر ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فتهللوا بالسعادة، إذ تحققت لكم الجنة منزلاً وداراً ونعيماً، فإنكم واصلون إليها ومستقرون فيها، فهي داركم وقراركم ﴿ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ التي وعدكم الله تعالى بها في الدنيا. فأنعم بها من بشارة، اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك، ووالدينا وأهلينا جميعاً، والمسلمين أجمعين، بفضلك وكرمك. يا رب العالمين.

وكذلك تقول الملائكة لأهل البشرى ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ قد كنا أولياء لكم بالخير في الحياة الدنيا ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالتسديد والمعونة والحفظ، والدعم لكم نحو الخير، وتسهيله وتزيينه لكم. وتقبيح المعصية لهم، وترهيبهم من المعصية، فيستثقلونها، وذلك معونة وتسديداً من الله تعالى لكم. وكما كنا معكم في الحياة الدنيا فكذلك نحن معكم في الآخرة ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ نرافقكم، ونتلقاكم بالسلام عند دخول الجنة، ونؤنس وحشتكم في القبور. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله تعالى، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم[١] مما يدل على عناية الله تعالى بعباده المؤمنين المتقين، إذ يجعل الملائكة تصاحبهم في الدنيا وفي الآخرة، فتسددهم في الدنيا، وتؤنسهم في الآخرة. وهذا يعزز عند المؤمن المثابرة على طاعة الله تعالى، وعدم الاكتراث بمفاتن الدنيا الزائلة. ويشجع ويرغب العاصي في الاستقامة، ويحث الكافر على الدخول في الإسلام، والفوز بهذا الفضل والعناية الكريمة من الله العزيز الكريم.

ومن مزيد البشارات من الملائكة للمؤمنين المستقيمين على دين الله تعالى، أنها تقول لهم كذلك ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ فلكم في الجنة جميع ما تشتهيه النفس،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٧/٤)

من غير حد محدد، ولا قدر مقدر. بما يفيد كذلك أن الشيء الْمُشتَهَى يأتي بالهيئة التي اشتهاها أهل الجنة، وكما أحبوا ورغبوا ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ولكم ما تطلبونه وتمنونه.

ومن دقائق كلام العزيز الوهاب أن البيان الكريم من قول الملائكة تضمن أمرين: الأول: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ ﴾ والثاني: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ فالأول كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى: باعتبار شهوات أنفسهم. والثانية: باعتبار ما يطلبونه. وهو أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أو لا[١] وهذا من دقائق البيان، بحيث ما تشتهيه النفس رغبة في كيفيته، كالطعام والشراب مثلاً. وأما ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ فيشمل ما تشتهيه النفس، أو ما تطلبه من غير اشتهاء، فقط لمجرد وجوده عندهم، أو تغييره. كما أفاد ذلك أنه لا يتطلب ذلك تعباً، ولا ذهاباً لإحضاره، بل بمجرد اشتهاء النفس، يأتيها ما اشتهته، وبمجرد الطلب، يأتيها ما دعت به. فهي حياة كاملة السعادة، ودائمة لا تنقطع. مما يبين دقة البيان من الله تعالى الكريم.

ثم توضح الملائكة للمُبَشَّرين بأن هذا الذي نقوله لكم ونبشركم به هو ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ ليس من عند أنفسنا، بل هو من ربكم سبحانه وتعالى ﴿ نُزُلًا ﴾ ضيافة وتكريما وإنعاماً، والنُّزُل هو ما يُعَد للنازل من الضيافة والتكريم. وكون هذا النُّزُل ﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ سيكون ليس له مثيل ولا شبيه، فهو من ربكم الذي اتصف بالمغفرة ﴿ غَفُورٍ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عمن استغفر وتاب وأناب إلى ربه سبحانه وتعالى ﴿ غَفُورٍ ﴾ فلا يعاقب عليها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿ رَّحِيمٍ ﴾ حيث أكرمكم بما أنتم فيه، وعفا عن سيئاتكم، وهداكم ووفقكم وسددكم، ثم أكرمكم بهذا العطاء العظيم، وبهذه المنزلة الشريفة الكريمة. اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك، ووالدينا وأهلينا جميعاً، والمسلمين أجمعين، بفضلك وكرمك. يا رب العالمين.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى الحث على الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، بأسلوب المفاضلة التي تُطَمِّع المؤمن في الدعوة إلى دين الله تعالى القويم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ليس أحد أفضل في القول ممن دعا إلى توحيد الله تعالى، بالإخلاص له، ومتابعة دينه القويم بالامتثال والطاعة، وأعلن وأظهر هدايته لغيره، بأنه ممن استسلم لله تعالى بالطاعة والانقياد.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥١٥/٤)

وقد ورد البيان الكريم بأسلوب الاستفهام الذي يفيد النفي الذي تقرر به أنه لا أحد أحسن قولاً من هذا الصنف من المؤمنين ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ فهل هناك من هو أحسن في القول ﴿ مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ سبحانه وتعالى. فهو سؤال تقريري وإثبات، بأن ليس هناك من هو أحسن في القول ﴿ مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ممن سعى إلى دعوة غيره إلى توحيد الله تعالى والإخلاص له بالطاعة. فليس هناك أحسن من هذا العمل. مما يبين مكانة ومنزلة الداعي إلى الله عَزَّ وجل.

وقد ورد تقرير الأفضلية بدلالة كلمة ﴿ أَحْسَنُ ﴾ التي أفادت المبالغة بأسلوب التفضيل، الذي يستحث المؤمن على أن يكون مبادراً إلى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. وورد الفعل بصيغة الماضي ﴿ دَعَآ ﴾ ليفيد أنه اشتغل واعتنى به. وفي هذا ثناء على أهل العلم الذين اشتغلوا بالتعليم والدعوة إلى الله تعالى. وأنه ليس هناك أفضل وأحسن ممن اشتغل بهذا الجانب. وشمل ﴿ دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ جميع خصال ومفردات دين الله سبحانه وتعالى، من التوحيد، والعبادات، والأخلاق، والتعاملات في شأن البيع والشراء، وغيرها من تفاصيل الفقه في الدين. مما يدل على أنها خير ما يشتغل به أهل العلم بشريعة الله عَزَّ وجل. فلا أحد أحسن قولاً، وأعظم منزلة ممن دعا غيره إلى طاعة الله عَزَّ وجل، والمحافظة على دين الله تعالى بالاتباع والانقياد.

ولم يكتف بدعوة غيره لشريعة الله تبارك وتعالى بل أقام ذلك في نفسه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فأتبع ذلك بالعمل والانقياد لربه جَلَّ جلاله، والذي يحفز غيره على الاستجابة والاستزادة والامتثال، لِمَا يرى في مسلك هذا الداعي إلى الله تعالى. فهو ممتد بما يقوله لغيره، فهو مواظب وملازم به لنفسه، ومتعد لغيره بالدعوة، والأسوة الحسنة ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وأظهر بالقول بعد العمل والاقتداء أنه من المنقادين السالكين المستسلمين لدين الله تعالى، قولاً وعملاً. وهذا هو عمل الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن تبع منهجه في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. مما يفيد أن على كل مسلم أن يكون داعية لدين الله تعالى بما يعرف من الحق، ومن أبرز ذلك الاتصاف بالطاعة لله تعالى، ليكون قدوة وأسوة لغيره، وإظهار محاسن الدين وأخلاقه في سلوكه. وأن يجتهد حتى لا يحرم نفسه هذه المنزلة العظيمة.

ثم يُظهر ويُجلِّي سبحانه وتعالى الفرق بين محاسن الأعمال وسيئاتها، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ ينفي تبارك وتعالى المساواة بين الحسنة وبين السيئة ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ فإنهما أمران لا

يستويان البتة. وجعل هذا النفي مختص في ذاتها، فإنهما غير متساويان، بل متضادان، فالحسنة تشمل الفعل الحسن والقول الحسن، وهو جميع ما يُرضي الله سبحانه وتعالى، فيثاب بالمكافأة على فعلها. وقد استوفت ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ كمال الْحُسن في ذاتها، وتُكسب الْحُسن لمن قام بها فعلاً كانت أو قولاً. وأما ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فهي تستوفي كل فعل وقول قبيح لا يرضى به الله سبحانه وتعالى، ويعاقب عليه بما يستحق الفاعل. وقد استوفت دلالة ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ صفة الإساءة والفحش في ذاتها، وإكساب فاعلها فحشها وقبحها بقدر ما فيها من الإساءة والذم، وسواء كان قولاً أو فعلاُ. فكل معصية هي من مفردات السيئة.

ومن دقائق البيان أن كلاً من الحسنة والسيئة وردت مفردة ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ ليدل على عموم جنسها، وعلى أن الحسنة هي حسنة في كل شيء يُثاب على فعلها من الله تعالى، وأنها تستوفي جميع مفرداتها وأنواعها ودرجاتها: سواء صغائر الحسنات، أو عظائمها، وهي الصفة للفعل والقول الحسن. وأن السيئة، هي سيئة في كل شيء يعاقب الله تعالى عليه، فتستوفي جميع مفرداتها من الصغائر والكبائر من الذنوب والآثام. وهي الصفة للفعل والقول السيء. وهذا غاية البلاغة البيانية، وجزالة اللفظ باحتوائه واستيفائه كمال المراد بأدق الألفاظ.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بمنهجية التعامل في دفع السيئة، بما يرفع من مستوى التعامل إلى أقصى درجاته، والتي تُظهر أخلاق المسلم بما شرعه الله تعالى في المدافعة. فقال عَزَّ وجل ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ ادفع بصبرك وعفوك وإحسانك شر من أساء إليك. وقابل إساءته بإحسانك إليه. فأمر سبحانه وتعالى بفعل الأمر ﴿ٱدْفَعْ﴾ التي تعنى التصدي، والمدافعة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ومن دقائق التوجيه وإعجازه من الله تعالى أنه حدد الدفع بالأحسن والأجمل، ولم يحدده بمفردة من مفردات الْحُسن، لتستوعب كل حُسن، وبما يقتضيه الموقف، فمقتضيات المواقف متعددة، فلا حصر لها، فقابلها بالتوجيه الكريم الذي يستوفي مساحتها العريضة. فادفع إساءة المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الإحسان والحسن والأفضلية. فقد يكون الدفع بالعفو والترك، وقد يكون بالإحسان إلى المسيء، وقد يكون بالصبر على الإساءة وتحملها، وقد يكون بالتغافل عنها، وقد تكون بالمبادرة والإحسان ابتداء. ومن ذلك ما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال لعقبة بن عامر رضي الله عنه (يا عقة بن عامر: صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك)[1] بل جعل الله تعالى مثوبتها له، كما قال عَزَّ وجل

(١) أحمد، المسند (١٥٨/٤)

في سورة الشورى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الأفضل، وجعل ثوابه من لدنه سبحانه وتعالى بأسلوب التعظيم، حيث لم يذكر هذا الثواب، لِيُظْهِر سبحانه وتعالى عظمته لمن عفا وأصلح.

ثم حقق ذلك البيان والتوجيه الكريم بمثال عام وشامل، بل قاعدة عظيمة في المدافعة بالتي هي أحسن، فقال سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ فإذا قابلت وواجهت الذي بينك وبينه عداوة، فواجه وعامله بصفتين: ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ فالصفة الأولى: وكأنه في منزلة الولي ﴿ وَلِيٌّ ﴾ من الموالاة، أي: كأنه من الأعيان الذين تصادقهم وتصافيهم، وأن بينكما موالاة، وتعاضد. وأما الصفة الثانية: فهي وكأنه ﴿ حَمِيمٞ ﴾ من الأقارب والأصدقاء الذين بينك وبينه محبة، وكأن كل واحد منكما يحمل للآخر حباً ووداً، وهذا يكون من طرف الذي يأخذ بهذا التوجيه الكريم، بينما الطرف الآخر يحمل العداوة. ولكن أنزله هذه المنزلة. فإنه سيتغير حاله، وتستدفع شره بالخير، وتنال المثوبة العظيمة من الله تعالى، ويكثر المحبين لمن أخذ بهذه القاعدة الكريمة، وخاصة من الأقارب وعامة الناس. لأن الإنسان بطبعه مخالط لغيره في جميع مستويات التعامل. مما يدل على كريم خصال الإسلام، وأنه يجمع العباد على الخير، ويعلمهم كيف يتظافرون ويتعاونون، وكيف يزيلون الشحناء من قلوبهم وقلوب غيرهم. وأن يكونوا فاعلين في حياتهم الاجتماعية لأقصى ما يمكن أن يكون.

وقد استهل التعامل مع من كانت معه عداوة بحرف ﴿ فَإِذَا ﴾ التي تفيد المفاجأة. أي: فاجئ هذا الذي بينك وبينه عداوة بما يقتضيه الأمر والشأن، وكأن ليس بينكما عداوة، بل اجعله في محل ومكانة الولي الذي تواليه وتصادقه وتحالفه، بل زاد من صفة المعاملة أنه ﴿ حَمِيمٞ ﴾ القريب جداً، والصديق الذي تود بأن لا تنقطع علاقتك به. وهما خصلتان متضادتان ومنافيتان لمن بينهم عداوة، مما يلزم مجاهدة النفس على ذلك، واعتياده مع الناس. فإن هذا يقتلع العداوة، ويروض عدوك لك، ويزيل ما في قلبه من حنق وبغض، بعكس عندما تواجهه بالجفاء والاكفهرار، فإن ذلك يزيد من العداوة، ويرتقي بها ويرفعها إلى درجة الحقد وإلى ما لا تُحسن عاقبته.

وهي قاعدة عظيمة من الله سبحانه وتعالى، فإذا أخذ بها العبد استأصل بها العداوة الكائنة مع غيره بأحسن السبل والوسائل الربانية. فكلما واجه عداوة تذكر هذه القاعدة. فقال ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ وكلما رأى متخاصمين نصحهما بقوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ

﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لتكون منهج حياة، ومنهج معالجة، ومنهج تطبيق، ودعوة إليها، لتفتيت العداوات من القلوب.

ويُعَظِّمُ الله تبارك وتعالى شأن هذه الصفة الحميدة والخصلة الرفيعة، التي هي دفع السيئة بالحسنة، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فما يُوَفَّق لوصية الله تعالى التي أوصى بها وبينها سبحانه وتعالى، فيحظى بها، ويلزمها وهي خصلة دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ الذين اتصفوا بالصبر، وكظم الغيظ، وتحمل ما يشق على النفس، فهم الذين يحصلون على خصلة المدافعة بالتي هي أحسن، وهي الخصلة التي قال الله تعالى عنها ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ لأنها مبنية على احتمال الأذى، ومجاهدة أنفسهم على ما تكره، والثبات على ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وما يحقق لها الفوز في الآخرة. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ومن يكتسبها فقد نال خيراً كثيراً، فهو صاحب نصيب متعاظم من الخير في الدنيا بمحبة الناس له، ودفع الشر عن نفسه وعن غيره، وفي الآخرة ثواب الله تعالى العظيم الذي لا يقدر حجمه من عظمته إلا الله سبحانه وتعالى.

وابتدأ البيان الكريم بنفي التحصيل ثم الاستثناء من النفي، فقال تعالى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا﴾ بنفي جميع وسائل التحصيل لها إلا بخصلة الصبر، ثم كرر النفي مع الاستثناء مرة أخرى عند تحصيل الحظ العظيم ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا إظهار للوسيلة التي هي الصبر، بمدافعة النفس لهواها ومحبتها للانتصار، وإظهار كذلك للمكاسب العظيمة التي يجنيها المتخلق بهذا الخلق في مدافعة السيئة بالحسنة.

وقد أفاد البيان الكريم أن الدفع بالتي هي أحسن يقوم على قاعدة الصبر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بل أفاد البيان الحصر بحرف ﴿إِلَّا﴾ لإفادة أن من لم يكن من أهل الصبر والتحامل على النفس ومجاهدتها لهواها فلا يمكن أن يحصل على هذه الخصلة الخلقية الرفيعة. وهذا يتطلب أن يترفع عن محبة الانتقام، والانتصار. وفي هذا دفع للمؤمن بأن يروض نفسه على خصال الصبر التي تتطلب قوة الإرادة بالتحامل على النفس، ومجاهدتها على محاسن الأخلاق التي هي من مرضاة الله تعالى، ومغالبة هوى النفوس ومرادها من الفوز والانتصار على غيرها. وقد امتدح الله سبحانه وتعالى خصلة الصبر في كتابه الكريم، وأمر بها كما في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾

وقد أفادت النتيجة والمحصلة التي يحظى بها من دفع السيئة بالحسنة هو تعظيم شأنها وثوابها ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فقد تم إضافة التعظيم إلى الحظ ﴿ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وأيضاً إفادة الحصر بحرف النفي ﴿ وَمَا ﴾ ثم حرف الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾ كما أفادت ﴿ ذُو ﴾ المصاحبة، أي: المصاحب للحظ العظيم ﴿ ذُو حَظٍّ ﴾ الذي يعني ويفيد: التحصيل غير المتوقع من الخير، ويفيد المفاجأة من تحصيله وهَولُهُ وعظمته. ثم وُصِف بالعظمة ﴿ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ لإفادة ضخامته، لما ينتج عنه من عظيم الأجر، الذي لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى. كما أن في إبهام قدره ونوعه، ما يفيد التضخيم، والتعظيم من الله تعالى تعظيم عظيم، لأنه من لدن صاحب الخزائن العظيمة التي لا حدود لها.

وفي هذا بيان بأن الله تعالى يحب من عباده التآلف، وقطع التناحر، ويحب التواد بينهم، والتعاون، والتصافي، وأن يُبعدوا بينهم الأحقاد، وأن يُطهروا ويُصَفُّوا نفوسهم من العداوة والأحقاد، ويروضوها على مكارم الأخلاق. مما يؤكد أن هذا الدين لا يمكن أن يكون إلا من عند خالق الإنسان، وخالق الكون كله، ورب كل شيء ومالكه. كما يفيد ذلك أن من زاد في أخلاقه وكريم تعامله فقد ارتفع واعتلى في دينه، لأن مجاهدة النفس تدل على قوة الدين.

وبعد أن أمر الله تعالى في الآية السابقة بمنهج وقواعد التعامل مع الغير من الناس، الذين بينهم عداوة، بأن تكون بمقابلة السيئة بالحسنة، وما يتطلب الأمر من الصبر ليفوز بالحظ العظيم. فعالج هنا تدخلات الشيطان الذي هو عدو الإنسان، لأنه لا يحب التسامح بين الناس، بل يحب إشعال العداوة بينهم، ولذلك ينبه الله سبحانه وتعالى إلى محاربة الشيطان ووسوسته فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فحال إصابتك من الشيطان بما يدعوك إلى الشر، ويثبطك عن الخير، فاستعن بالله تعالى، مستعيذاً به، وملتجئاً إليه، فإنه سميع لكل قول، وعليم بكل شيء. فيصرف عنك تلك نزغات الشيطان وشره.

فيُرشد الله تعالى إلى منهجية التعامل مع نزغات الشيطان ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فلقد أمر الله تعالى في الآية التي قبلها بمنهج وقواعد التعامل مع الغير من الناس، الذين بينهم عداوة، بأن تكون بمقابلة السيئة بالحسنة، وما يتطلب الأمر من الصبر ليفوز بالحظ العظيم. ولَمَّا أن الإنسان مُعَرَّض لنزغات الشيطان التي قد تمنعه عَمَّا أُمِر به، فتؤثر تلك النزغات الشيطانية على مسلك الإنسان في نفسه وفي دينه ومع غيره، ومنها حصول الغضب أو الحسد، وحب التعالي، والانتصار

للنفس، فيستغل الشيطان هذا الأمر فيشحنه بوسوسته التي تبعده عن الأخذ بمكارم الأخلاق، فأرشد الله تبارك وتعالى إلى الاستعانة به عَزَّ وجل ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: فاستعن بالتعوذ بالله السميع العليم من الشيطان، فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفس من الشيطان الرجيم، وما يدور في خلجاتها. فإن من استعاذ فإنما استعان ولاذ واستنصر بسميع عليم، ذو قوة على الشيطان وغيره. وفي هذا إرشاد للأخذ بمعية الله تعالى من خلال الاستعاذة به عَزَّ وجل من الشيطان الرجيم، كما أن في هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه ناصره على الشيطان وكيده ومكره إذا استعان واستغاث بربه سبحانه وتعالى، مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى صارف عنه ما يمنعه من الخير ويدفعه إلى لشر والمعصية عموماً.

والنزغ يكون للإفساد والإغواء ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ كالوسوسة بفعل الشر، والتحفيز على ذلك، والصرف عن التي هي أحسن. لأن نزغ الشيطان هو الوسوسة بالتحفيز والدفع للشر، والتثبيط عن الخير. ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام في سورة يوسف ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ وذلك بالوسوسة الدافعة للوقوع في براثين الشر، وسواء في الدين أو مع الغير. لأن الشيطان عدو للمؤمنين، فلا يوسوس لهم إلا بشر. فإما يحمل المؤمن على خلاف ما أُمِر به من الأخلاق، أو بالتقاعس عن فعل المكارم منها، ومن ذلك أن يحمله على ترك قوله تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أو في غيرها من توجيهات الله تعالى، فعالجه العزيز الكريم الحكيم سبحانه وتعالى بالاستعانة به ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ وهو الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء والاعتصام به عَزَّ وجل، فإن الشيطان لا ييأس من التصدي للمؤمن، فيترصد له من كل جانب كما قال تعالى عن قول الشيطان في سورة الأعراف ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ فرجاء الشيطان هو أن يحمل الإنسان على الغواية ما وجد لذلك سبيلا. ولا ملجأ ولا منجا إلا بالاعتصام بالله تعالى فيما أرشد إليه من الاستعاذة به من الشيطان.

وقد نوه سبحانه وتعالى إلى عظيم قدرته جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن ربكم سميع، يسمع كل شيء، فلا يخفى عليه صوت، ولا ناطق، كما أنه عليم بكل شيء، فلا يخفى على علمه عَزَّ وجل

شيء، بل ورد ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد كمال السمع والعلم إلى أقصى الاحتواء، بحيث لا يفوته شيء جَلَّ جلاله. بل ورد كذلك بصيغة الحصر والقصر على أن هذه صفة من الكمال لا يشاركه فيها أحد أبداً سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فهو وحده الوحيد في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيها أحد. بما يفيد من كانت هذه صفاته، فلن يخفى عليه أحد، في استغاثته واستعانته وحاجته، وفي سعيه، وفي طلبه، ومرضه وجميع حاجاته. فتعاملوا مع ربكم بما أخبركم به عن نفسه عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن تصدر ذلك البيان والإرشاد بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الذي التحقت بضمير الإشارة له سبحانه وتعالى، ثم حُصر الاسم والصفة الكاملة التامة له فقط دون غير ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ﴾ لا غيره سبحانه وتعالى ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فليس لأحد غيره له القدرة بدقائق المسموع والمعلوم، فيسمع ويعلم كل شيء، فلا تخفى عليه خافية، ومنها نزغات الشيطان التي تتخفى عن الإنسان، فإنها لا تخفى على الله تبارك وتعالى.

مما يبين افتقار العبد لربه ليذود عنه غوائل الشيطان، ومصارعه، وتصيده له، بجره إلى ما يفسد عليه أمره وشأنه. وفي هذا تعليم وإرشاد للمؤمنين بالتحصن من الشيطان بهذا التحصين، وأنه لا مُحصِّن لهم من الشيطان وغيره إلا الله تبارك وتعالى، فليلتجئوا إليه سبحانه عَزَّ وجل، ويتحصنوا به، وفق ما علمهم. بل قد وَرَدَ تأكيد وتعظيم شأن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى ببيان أنه هو فقط السميع العليم، لإفادة قوة من تستعين وتتضرع وتلتجئ إليه عَزَّ وجل من الشيطان الرجيم. فنعوذ بالله السميع العليم من الشيطان، ومن كل شر.

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ
لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا
عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى مظاهر قدرة الله تعالى، وعظيم حججه في آياته الباهرات مما خلق تبارك وتعالى، والدالة على أنه خالق كل شيء، وأنه رب كل شيء، ومالكه، والمتصرف فيه، وأنه لا شريك له في

ملكه، وأنه القادر على كل شيء. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن من دلائل عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه لا شريك له عَزَّ وجل، فإنه هو وحده الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر بهذا النظام الذي يسير بانتظام بديع، لا يتقدمون ولا يتأخرون عما حدده الله عَزَّ في علاه. وبما يفيد أنها مخلوقات له سبحانه وتعالى، وبالتالي لا تستحق أن تُعبد من دونه عَزَّ وجل، طالما أنها مخلوقة له تبارك وتعالى ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ فلا تسجدوا للشمس بعبادتها، ولا للقمر، فلا يستحق أي منها صرف العبادة لأحدهما أو كلاهما، لأنهما مخلوقان، فيكون الأحق بالتوجه إليه هو خالقهما وخالقكم. فهو استدلال لا يتناقض مع العقل، بل هو عين التعقل والصواب. فيوضح الله تعالى لعباده الحقائق بأدق البيان. بل من دقائق السياق أنه خص الشمس والقمر، ولم يذكر الليل والنهار كما هو في صدر الآية. لأن الليل والنهار مظهران من مظاهر ودلالات الشمس والقمر، فبغياب الشمس يظهر الليل، وبظهور الشمس يظهر النهار. وفي هذا معالجة دقيقة لأخطاء الإنسان، وضياع فكره بما يزينه له الشيطان الرجيم.

فبعد أن بين وأوضح سبحانه وتعالى لعباده ما نهاهم عنه بالأدلة والحجج والبراهين، وصحح لهم مفاهيمهم وجهلهم، يأمرهم بما يجب ﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ فاسجدوا لله سبحانه وتعالى الذي خلق الشمس والقمر. بعد أن عرفتم أنهما مخلوقان من خلق الله تعالى، فلا يملكان حق التصرف إلا بما يأمرهم الله تعالى به ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن كنتم فعلاً تريدون الحق فانقادوا لأمر ربكم، وخُصُّوه بالعبادة، فاعبدوا ربكم وحده لا شريك له، مخلصين له الدين. وفي هذا معالجة لمن يعبد الشمس، أو يعبد القمر، أو يعبدهما معاً، أو غيرهما، بل إن في إيضاح ذلك إبطال لكل معبود غير الله تعالى، فقد أكد قوله عَزَّ وجل ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إبطال كل معبود من خلقه، وخص ذاته العظيمة بالعبادة. فإن كنتم إياه تعبدون فتوجهوا إليه وأفردوه بالعبادة. فقد أبطل هذا البيان من الله تبارك وتعالى كل معبود من دونه جَلَّ جلاله.

ثم يخبر سبحانه وتعالى حال عدم مطاوعة أولئك لما بينه تبارك وتعالى لهم، فإن الله عَزَّ وجل غني عنهم، وعن عبادتهم، فهم الفقراء إلى ربهم، وهو الغني المغني ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ فإن لم يستجيبوا لك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، ومنعهم الاستكبار ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ فإن الملائكة عند الله تعالى مواظبون ودائمون له جَلَّ جلاله بالتسبيح طوال الوقت، ليلاً ونهاراً ﴿ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ لا

يملون ولا يفترون ولا يتعبون، فهم يلهجون بالتسبيح والتنزيه والتحميد لربهم تبارك وتعالى. بما يفيد أن ربكم غني عنكم وعن عبادتكم، فالفائدة عائدة لكم يوم القيامة.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى وصف ونعت امتناعهم بالاستكبار ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ليفيد حصر أسباب الامتناع في التكبر فقط، فليس هناك أي سبب آخر غير الاستكبار يمنعهم عن الطاعة والامتثال، بما يثبت ويفيد وضوح الحجج التي قامت عليهم، فلا يسعهم التردد والامتناع. مما يبين أن حجج الله تعالى في كل وقت وزمن واضحة جلية، فلا ينكرها إلا مكابر. مما يبين خطورة الكبر على الإنسان، فإنه يُفَوِّت عليه مصالحه ومكاسبه في الدنيا والآخرة. وبما يبين فضيلة التواضع للحق، فإنه يجعل صاحبه يستثمر الحق والخير، ويفوز به. وأعظم الخير هو الفوز برضى الله سبحانه وتعالى، وما يعقبه من الثواب العظيم الذي لا ينقطع، بل وينجو به من غضبه وعقابه سبحانه وتعالى. وهو المنعم المتفضل على عباده بجميع ما هم عليه من الفضل والإنعام. اللهم ارزقنا شكر نعمك، وطاعتك على الوجه الذي يرضيك عنا، برحمتك وتوفيقك وهدايتك يا رب العالمين.

ثم يستمر الاستدلال بعرض المزيد من الحجج والآيات العظيمة، والإنعام على جنس الإنسان، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فمن دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته على بعثكم بعد موتكم هو عظمة وقوة تدبيره، وبلوغ قدرته وحكمته التي تراها يا أيها الإنسان، حيث ترى الأرض هامدة، لا حياة فيها، فإذا أنزل ربكم عليها الماء من السماء تحركت بالإنبات، وتشققت الأرض عن الزروع، فإن الذي يحي هذه الأرض بعد موتها، هو الذي يحي الإنسان بعد موته. فربكم على كل شيء قدير. بما يفيد إبطال اعتقادكم بإنكاركم البعث بعد الموت، بما تشاهدون من قدرة الله تعالى أمامكم.

وقد أفادت جملة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أن آيات ربي كثيرة، وهذا بعضاً منها، ثم عَيَّن الْمُخَاطَب ﴿ أَنَّكَ ﴾ أيها الْمُخَاطَب، وهم جميع جنس الإنسان، أي: كل أحد من الناس ﴿ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ أي: ساكنة متذللة، فهي هامدة، غبراء، جدبة، لا حياة فيها من العشب، والمزروعات، ولا ماء يجري فيها، فهي خالية من الحياة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾ فإذا أنزل الله تعالى على الأرض المطر تغير حالها، وسماه الله تعالى على أصله ﴿ ٱلْمَآءَ ﴾ لأن الله تعالى جعل به الحياة لكل شيء، فتشاهد بعد نزوله حركة الأرض ﴿ ٱهْتَزَّتْ ﴾ تحركت الأرض بعد سكونها وخشوعها، حيث كانت قبل ذلك ﴿ خَٰشِعَةً ﴾ ساكنة، لا حياة

بها. ثم ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ وفي ذلك إشارة إلى استقبال الإنبات، وبدأت مراحل خلق النبات في جوف الأرض، إيذاناً ببدء ظهوره، ثم أثناء ظهوره. ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمرحلة التي تلي الاهتزاز، وهي ﴿وَرَبَتۡ﴾ ارتفعت وانتفخت قشور الأرض، لتمكين الزروع من الخروج والظهور، ثم الاستواء، لتبدأ الحياة بها من جديد.

ثم بعد بيان الحالة التي تمر بها الأرض من الموت إلى الحياة، ومن خشوع المسكنة والخمود والجمود الذي يدل على موتها، إلى الانتقال إلى الحركة والحياة. فإنه بقدرة الله تعالى عندما أنزل عليها الماء تحركت ودبت فيها الحياة، فأخرجت الزروع، فإن مَن كانت قدرته قد أحيت الأرض الجرداء الميتة، فإنه قادر كذلك على إحياء الإنسان الميت، وبعثه من قبره كما أحيا الأرض التي ترونها، وتشاهدون موتها وبعثها من جديد. فإن ذلك حجة وآية على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ فإن الذي أحيا الأرض الجرداء الميتة ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ بالبعث لهم من قبورهم، كما أحيا الأرض التي رأيتم بأعينكم كيف دبَّت الحياة فيها بعد أن كانت خاشعة لا حياة فيها.

فأفاد البيان الكريم الجزم بإحياء الأموات للحساب والجزاء. فأين العجز مع هذا القياس. بما ترون من حياة الأرض الميتة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ إن ربكم مُتَّصِف بكمال القدرة، فهو قادر على كل شيء يريده، فيتحقق كما أراد سبحانه وتعالى. فإن ما أوضحه وبينه لكم أعظم دليل وآية وحجة على قدرة ربكم سبحانه وتعالى على إحيائكم بعد موتكم وفنائكم. فإن الله تبارك وتعالى قادر على كل ما يريد، من غير استثناء. وفي هذا تعليل وبيان لكمال القدرة. فجملة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تستوفي كل شيء، وتنفي التبعيض، وتُثبت كمال القدرة، وقد ورد مطلعها بحرف التوكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، من أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير. فكل هذا البيان يوضح للعباد عظمة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. وبالتالي يجب الإيمان باليوم الآخر، وبالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وبعد بيان الآيات والحجج من الله سبحانه وتعالى للبعث والنشور والحساب والجزاء ينتقل البيان من الله تبارك وتعالى إلى معالجة المنحرفين الذين ينحرفون بآياته سبحانه وتعالى بالافتراء والكذب والزور والتزوير، فَيُظهِر لهم كمال علمه بأولئك الذين يميلون عن آياته، وينحرفون عنها، ويحرفونها عن مرادها وعن الصواب، بأنهم لا يخفون على الله سبحانه وتعالى العليم البصير. فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا

﴿تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن الذين يميلون عن الحجج والبراهين التي نُظهرها لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فينحرفون بها إلى غير الحق، فإنهم لا يخفون علينا. بما يفيد التهديد والتحذير لهم.

وقد بدأ البيان الكريم بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد ما بعدها، بأنه حقيقة لا شبهة فيما بعده من بيان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ والإلحاد هو الإنكار للحقائق، بالميل عن الحق الظاهر، فيكفر به وينكره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ فشملت جملة ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جميع الآيات المقروءة من القرآن، أو المشاهدة من خلق الله تعالى. فيميلون بها عن مقصدها، ليصلوا بها إلى إنكار دلالتها، فيقول سبحانه وتعالى فإنهم ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ فإننا نعلمهم ونعرفهم، ونعلم ما قالوا، بما يفيد التهديد لهم، والتحذير من أن الله سبحانه وتعالى سيعاقبهم على ما كان منهم من الألحاد والتحريف والتزوير.

ثم ينتقل بهم التهديد إلى بيان العقوبة، بأسلوب المقارنة، بين من كان شأنهم التكذيب والإلحاد والتزوير، وبين من شأنهم الإيمان والتصديق، فيقول تبارك وتعالى ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤال استفهام يفيد التقريع والتهديد، والتحذير والتنبيه للرجوع إلى الحق. سؤال لكل عاقل فهل الذي يُطرح في النار يوم القيامة جزاء ولقاء تكذيبه أفضل وخير، أم الذي يأتي وهو في أمان من أهوال يوم القيامة، ومن عذاب الله تعالى. بما يفيد أن هؤلاء المردة سيكون مطرحهم النار الموقدة، وأن أهل الإيمان في أمن وسلام. فتأملوا في حالكم كيف سيكون يوم القيامة، وبما يفيد عليكم أن تختاروا الأصلح، والأفلح، وأن الأمن من ربكم خير لكم من أن تنساقوا وراء العناد والاستكبار، فيعاقبكم بالعذاب الأليم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الحقائق واضحة بالأدلة والحجج والبراهين، ويُطلعهم على ما سيكون يوم القيامة قبل أن يكون. ولكن بعض الناس يأخذه الكبر والتعالي والعناد، أجارنا الله تعالى منه.

ثم يأتي مزيد التهديد بأسلوب المتاركة ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ اختاروا ما شئتم، سواء الحق أو الباطل، بما يفيد التهديد الذي يقرره سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فربكم عليم بكم، ومحيط بكم، وبما يكون منكم، فلا يخفى عليه منكم شيء. فيثبت لهم عَزَّ وجل كمال علمه بهم، وبما هو منهم. لإفادة التحذير والتهديد والترهيب لهم من التمادي مما هم فيه من الفجور والإنكار والتعالي.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تخصيصهم بالرغم من شمولية غيرهم، لإفادة مزيد التحذير. فربكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب عليكم، فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم، ومن

غيركم. وقد ورد البيان الرقابي بدقة عالية، إذ بدأها سبحانه وتعالى بالتأكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ التي تضمنت نون التوكيد الملتصقة بالضمير العائد على الله سبحانه وتعالى، ليعطي بيان القدرة، والأهمية، والتفخيم والتبجيل والعظمة. ثم أفادت ﴿بِمَا﴾ شمولية ما بعدها من أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإني أراكم وأسمعكم، وأعلم ما أنتم فيه من أمر. مما يفيد الرقابة الربانية لكم، كما أنها وردت على سبيل التخصيص ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بما تعملون أنتم، بالرغم من أن الله تعالى بصير بكل الخلق، ولكن في التخصيص زيادة تنبيه وتوكيد وإثارة اهتمامهم بما يجب أن يكونوا عليه. وورد بصيغة الجمع، بمعنى أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٞ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾

ويستمر التهديد لهؤلاء المكذبين الذين يلحدون في آيات الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ فإن الذين كفروا بالقرآن، وألحدوا في آياته، بالتكذيب والتحريف لِمَا جاءهم. ثم أخذ البيان في وصف الذكر الذي هو القرآن وأبطن وعيدهم. لإفادة التهويل بالجزاء العظيم العنيف، وكذلك لأنه معلوم من البيان فيما سبق. ونعت الله تعالى القرآن بصفة الذكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ وفي تسميته بالذكر على اعتبار أن القرآن يذكر العباد بجميع مصالحهم في الدنيا وفي الآخرة بأحسن وأدق تذكير. ثم يذكر سبحانه امتنانه عليهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير عناء ولا مشقة. ولكنهم لم يُحسنوا هذه النعمة بكريم الاستقبال والتقبل. ثم مَجَّد سبحانه وتعالى كتابه العزيز، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ وإن هذا القرآن هو كتاب متصف بالعزة، فهو عزيز من أن يُعَارَض، أو يُطعن فيه، وبالتالي فهو منيع عليهم مما يريدون من الميل به عن حقيقته.

فإن هذا القرآن هو ﴿ لَكِتَٰبٌ ﴾ فأول صفة للقرآن الكريم أنه كتاب، ولا يسمى الكتاب كتاباً إلا إذا تضمن نصوصاً من الكلام، ولن يكون هذا الكلام لأحد غير الله تعالى، لأن الصفة الثانية تبين وتؤكد ذلك، وهي: أنه مُنَزَّل من الله تعالى، وأنه ﴿ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ فهو كتاب عزيز في نفسه، وعزيز في مصدره. بل أكده بنون التوكيد ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ الذي التصقت به اسم الإشارة العائدة على الكتاب. وكونه ﴿ عَزِيزٌ ﴾ فإنه يقتضي أنه جاء من العزيز العليم، وأنه جاء من العلو والارتفاع، فالذي أنزله هو الله تعالى. وبالتالي فإن مَن أخذ بهذا القرآن أعزه الله تعالى، لأنه كتاب عزيز، يُعز به الله تعالى من أعزه، ويذل ويخزي ويهين من لم يعز كتابه.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى حفظ كتابه العزيز من عبث العابثين، ليكون هذا الحفظ آية باقية إلى يوم القيامة، حينما يرفع الله تعالى كتابه. فقال عَزَّ وجل ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ لا يأتيه الباطل، فإنه يمتنع أن يصل إلى القرآن الكريم أي شيء من الباطل، مهما حاول أعداء الدين، فلا يمكن أن يتطرق إليه الباطل سواء من شياطين الإنس أو الجن ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ لا يستطيع الباطل أن يصل إليه ولا يداخله من أي جهة كانت، بما يدل على أنه محفوظ من الله تعالى. فدلت جملة ﴿ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ احتواء الحفظ للقرآن العظيم من جميع الأوجه. وهذه آية باقية إلى قيام الساعة.

ثم يعلل تبارك وتعالى قوة ذلك الحفظ بأنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فقد قرر الله تعالى ذلك؛ بأن نسب إنزال القرآن إليه عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فالذي أنزله هو الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فنزل به جبريل من السماء على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فنفى عن القرآن صفة العمل البشري قطعاً، والنزول يقتضي أنه جاء من العلو والارتفاع، وأن الذي أنزله هو الله تعالى المتصف بأنه ﴿ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فقد قرر الله تعالى بأن إنزال القرآن إليه عَزَّ وجل. وكون الذي أنزله ﴿ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ الإفادة بأن الذي أنزله سبحانه وتعالى ﴿ حَكِيمٍ ﴾ في أفعاله وأقواله، فيضع كل شيء موضعه وبالتالي فإن حكمته تتولى الحفظ بأدق الحفظ. كما أنه ﴿ حَمِيدٍ ﴾ فهو محمود بالمدح والثناء في ذاته، على ماله من صفات الكمال ونعوت الجلال، ومحمود في أفعاله وأقواله، وقضائه وعدله وحكمه في جميع ما أسدى لعباده، ومنها كتابه القرآن الكريم. ومحمود كذلك فيما يقضي ويأمر به، وينهى عنه، فإن عواقبه متحقق فيها الحمد والثناء والمدح. فمن

هذه صفاته فلن يستطيع أحد من خلقه أن يمس كتابه بأي شيء من الباطل. وفي هذا تحذير وبيان، وإظهار العزة لكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. كما أفاد ذلك أن هذا القرآن العظيم كله حكمة، لأن الذي أنزله هو الحكيم، وأن كل ما هو في القرآن محمود من كل وجه، في تشريعه، وأحكامه، وحلاله وحرامه، ومواعظه، وأمثاله، وقصصه، وأخلاقه، وأمره ونهيه. وكذلك هو محمود في سياقه وبيانه وإعجازه. فإن الحمد فيه شامل لكل ما تضمنه القرآن الكريم. فالحمد لله رب العالمين.

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه تنصيصاً، بمزيد من التثبيت والتسلية لما يعانيه صلى الله عليه وسلم من المنكرين، والمحاربين له، ولكتاب الله العزيز الحميد. فيقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يا أيها النبي ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ من التكذيب والباطل والفجور والأذى الذي تجده من المشركين ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ فما قيل لك من التكذيب وعموم الأذى هو نفسه الذي قيل للمرسلين من قبلك. فتشابهت ردودهم وأقوالهم بمثل ما تشابهت به أفئدتهم مع من سبقهم من الجاحدين المكذبين. فبمثل ذلك قالت الأقوام السابقة للمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ولكن لا تحزن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فكما أن ربك غفور للموحدين الطائعين، ولكل من تاب ورجع إلى الحق، فَيُكَفِّر عنهم ما مضى وسلف من سيئاتهم، فإنه أيضاً ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فإن ربك شديد في عقوبته لمن أصر وتمادى في غيه وعصيانه، وتمرده. فسوف ينالهم ﴿ عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فإن عقابهم متصف بقوة الألم والبأس الشديد بهم. مما يبين عدل الله تعالى بين العباد، وكذلك إظهار منهج التوازن في التحفيز والترغيب والترهيب. فيرغب العباد في الطاعة، وينذرهم من الباطل. فتظهر حكمة الله تعالى واضحة جلية.

وقد استهل قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ لتأكيد ما بعده وتوثيقه بالتحقق المؤكد، كما ورد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تخصيصاً وتعييناً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ لإفادة الحفاوة والتكريم بالتخصيص لهذا البيان الذي هو ترغيب وإنذار للجميع. وأفادت ﴿ لَذُو ﴾ أي: أنه سبحانه وتعالى مُتَّصِف بهذه الصفة المتحققة من المغفرة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ وأيضاً ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: متصف بالمعاقبة على من كفر. وذلك بتحقيق العذاب الأليم على من يستحق العذاب. بما يبين ويُظهر كمال القدرة وكمال الحق والعدل في الحكم من لدنه سبحانه وتعالى.

ومن بديع البيان الكريم قوة نظمه ودلالاته بأن ورد وصف قول المشركين ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ بصيغة الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار منهم، فلن يتوقفوا عن ذلك، فَوطِّن نفسك، واصبر عليهم وتَصَبَّر. كما ورد الفعل أيضاً بصيغة الفعل المبني الذي لم يُذكر فاعله، فلم يذكر سبحانه وتعالى قولهم، ولا نوعه، ولكن شبهه بما قيل للرسل من قبل ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾ كما أنه أيضاً تم تغييب نوع المقول للرسل من قبل، فيما قالته أقوام المرسلين، ليستوفي جميع أنواعه. وهو تشبيه بليغ، ليجمع ويجتمع به جميع الأقوال مهما اختلفت ألفاظها وأنواعها، ومن ذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: كاذب: وقد قيل لجميع الرسل بذلك، وقالوا ساحر، وقد قيل لموسى عليه السلام ولغيره من الرسل. وقالوا: كاهن، وشاعر، ومجنون، وكاذب، وقد قال المكذبون لرسلهم من قبلك بمثل ذلك. كما قال تعالى في سورة الذاريات ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ مما يفيد التعجب من تشابه حال الكفر والكافرين في معاداتهم للرسل، ورميهم بأشنع الأوصاف، من أجل إقناع أنفسهم بما هم عليه من الكفر والباطل، وإغراء غيرهم، لتلبية شهواتهم الفاسدة الباطلة. وقد كشف الله تعالى التشابه بين أهل الباطل عبر الأزمان بأدق الوصف والبيان، مما يفيد أن هذا التشابه كائن في كل زمان. من أن أهل الباطل الذين يريدون انتصار باطلهم على الحق، ولا يريدون للحق أن يعلوا ويظهر، لأن في علوه وظهوره إطفاء واضمحلال لباطلهم. ويُقاس على ذلك جميع درجات أهل الباطل، وفي جميع أنواعه ومستوياته، وكذلك مما يكون من أهل المعاصي، فإنهم يريدون غيرهم مثلهم. ولا يريدون ما يمنع باطلهم. ليعطي ويبين ذلك أن هذا منهج متداول، ومتنقل، ومرتبط بالنفوس الباطلة الفاجرة، لِمَا تحمله من الفساد بحسب نوعه ودرجته، حتى يتبين من ذلك أهمية الحكمة في التعامل.

وقد أفادت صيغة ﴿لِلرُّسُلِ﴾ الجمع، ليفيد جميع الرسل على كثرتهم، سواء ممن قصهم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، أو ممن لم يقصهم سبحانه وتعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام. وقد سبق ذلك البيان حرف التحقيق ﴿قَدۡ ﴾ لإفادة التأكيد والتحقق من أنه قيل للرسل بمثل ما يُقال لك من الأقوال. فهو تأكيد للحقائق، بما يفيد: لست أنت وحدك الذي يواجه ذلك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من بين الرسل عليهم السلام، مما يلزم منك الصبر على ما يقولون، فإن العاقبة لك ولمن آمن معك، كما كانت للمرسلين ومن آمن معهم.

ثم يزداد البيان من الله تعالى بالتعظيم للقرآن الكريم، مع بيان مجادلة أهل الأهواء فيما لو أنزله الله تعالى بغير اللسان العربي، فقال عزَّ وجل ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ

عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ فلو جعلنا هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بلسان غير عربي أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحجج هؤلاء المجادلين بالباطل ﴿ لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾ أي: لقال المعاندون: لو بُيِّنَت وَوُضِّحت. فإن الأولى الإيضاح والبيان لما لا نفهمه، فكيف نصدقك بشيء لا نعرفه ولا نفهمه، فإننا نحتاج إلى التفصيل والبيان، وذلك من باب العناد. بما يدل على تجذر العناد في قلوبهم بسبب الحسد والاستكبار، فلا يبحثون إلا عما يصدهم عن هذا الكتاب العظيم.

فيبين قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا ﴾ عظيم الامتنان من الله تعالى، بأن أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وأيضاً على رسول عربي فصيح، وعلى أقوام من العرب البلغاء في الفصاحة والبيان، بما يمكنهم ويجعلهم ينقلونه إلى غيرهم. وهو سؤال افتراضي فيما لو كان الأمر أن الله عَزَّ وجل أنزله ﴿ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا ﴾ كيف سيكون حالهم؟ أي: أن حالهم سيكون أعظم مما هم عليه اليوم.

ثم لم يترك سبحانه وتعالى البيان والجواب لهم، بل أوضح ما سيكونون عليه، لتأكيد معرفته عَزَّ وجل بخواصهم، وخواص الإنسان عموماً قبل أن يكون منهم الشيء. فيذكر الله تعالى بما ذا سيقولون ﴿ لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾ أي: ﴿ لَوۡلَا ﴾ وهو حرف تحضيض وحث على تفصيل الكتاب بالعربية وفق مرادهم. فيقولون: لولا تم بيان القرآن بلغتنا العربية حتى نفهمه، ولتعذروا بأنهم لا يفهمون لغة غير العربية. لأن دلالة ﴿ أَعۡجَمِيّٗا ﴾ تعني ما ليس عربي من اللغات. فهي بالنسبة للعربي غير مفهومة، فتسمى لغة أعجمية، وتُسَمَّى: لغة الأعاجم، أي: الذين يتكلمون بها.

والمقصود بمعنى ﴿ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾ بُيِّنَت ووضِّحت. أي: كان الأولى الإيضاح والبيان لما لا نفهمه، فكيف نصدقك بشيء لا نعرفه ولا نفهمه، فنحتاج إلى تفصيل، وذلك من باب العناد الذي دافعه الاستكبار والحسد. مما يدل على معرفة الله تعالى بخواصهم وخواص الإنسان قبل أن يكون منه الشيء. وأنه يعلم الأمر كيف سيكون فيما إذا كان قبل أن يكون. فأوضح ماذا سيكون منهم فيما لو نزل القرآن الكريم بغير العربية.

ثم يجيب عنهم سبحانه تعالى على هذا السؤال بقوله عَزَّ وجل ﴿ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ ﴾ أي: سيقولون متعجبين ﴿ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ ﴾ سؤال استنكار منهم. أيكون كتاباً أعجمياً على رسول عربي، فيكون استفهام منهم على وجه الإنكار، فكيف يكون هذا؟ فالذي نَزَل أعجمي والذي أُنزِل عليه عربي. فكيف يكون هذا؟

سؤال استنكار وتعجب فيما لو كان القرآن الكريم بغير اللغة العربية. فكيف ينزل كلام أعجمي على رجل وأمة عربية؟ فلا يفهمون بيانه. فيكون هذا القول منهم على وجه العناد والتعنت، والمخاصمة والمجادلة.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ إن هذا القرآن للذين آمنوا وصَدَّقُوا به، هو لهم هداية ونور إلى الخير والفوز والفلاح في الدرين. وهو كذلك ﴿وَشِفَآءٌ ﴾ من الجهل والريبة والشك، ووسوسة الشيطان، والأوجاع والأسقام. فوردت دلالة الهدى والشفاء عامة، لتستوعب دلالة ﴿هُدًى ﴾ كل طريق للحق والخير في جميع أمور الدنيا والآخرة. ولتستوفي دلالة ﴿وَشِفَآءٌ ﴾ كل مرض، سواء من أمراض القلوب كالشبهات والشهوات، أو أمراض الأبدان، من العلل والأوجاع والأسقام. وخير دليل عملي هو ما يتحقق به من الرقية بالقرآن على المريض، وما يتحقق لأهل الإيمان من اليقين، والبعد عن الشهوات المحرمة. مما يفيد أن القرآن الكريم خير وسيلة لمعالجة الشبهات والشهوات، وأنه علاج للأبدان بالرقية الشرعية من الأمراض والأدواء. وأنه لا نصيب لمن كفر به. فقد خص البيان الكريم هذا الانتفاع للمؤمنين فقط.

وأما بالنسبة للكفرة فقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

أي: أن الذين لا يصدقون بالقرآن ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ فإن في آذنهم ثقل من أن يسمعوا القرآن الكريم وينتفعوا بما فيه من الهدى والشفاء. والوقر هو: الثقل الشديد في السمع، بما يفيد أنهم غير مهتمين وغير منتفعين بما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن إليه من الهدى والشفاء. فلا يأبهون به ولا يهتمون ولا يكترثون بما يسمعون. بما يؤكد أنهم سمعوا الحق، ولكن الحسد والاستكبار جعلهم يعاندون ويكابرون إلى درجة تجافيهم عن الحق بالإعراض عنه، فحالهم شبيه تماماً بحال من في أذنيه ثقل شديد يمنعه من السماع. فهو وصف دقيق لحالهم الذي هم عليه، وبدقة بيانية غاية في الإيضاح والبيان.

ثم يصفهم بوصيف بليغ آخر، يبين حالهم مع حاسة البصر التي يشاهدون بها آيات الله تعالى الكونية التي يشير إليها القرآن الكريم ليتأملوها، كخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، وتداخل الليل والنهار، وغيرها من الآيات الكريمة. فيقول سبحانه عن هذه الحاسة التي لم ينتفعوا بها ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ فعميت أبصارهم عن رؤية حجج الله تعالى المتناثرة والمبثوثة في الكون التي يرشدهم القرآن الكريم إليها، فلا يبصرون به رشداً. فعميت أبصارهم كما صُمَّت آذانهم عن الحق الذي جاء به القرآن الكريم، فأصبحوا غير منتفعين به البتة. فهذا هو سبب عدم اهتدائهم بأنه حاصل من أنفسهم، نتيجة الحسد والاستكبار والعناد.

وهذا تشبيه في غاية البلاغة التي صورت حالتهم مع القرآن في أدق البيان وأبدعه وأفصحه، فتجلت منه أنهم هم الذين جعلوا في آذانهم ما يمنعهم من تدبر الحق ومعرفته، وجعلوا في أعينهم ما يمنع رؤيتهم للحق. فجمعوا لأنفسهم أعظم مانعين للتعلم والانتفاع. مما يبين نعمة السمع، ونعمة البصر في العلم بالحق والخير، ومشاهدته، واستثماره واغتنامه في جميع مصالح الحياة الدنيا والآخرة. مما يعلم الإنسان أن عليه أن يتنبه وأن يفتح أذنيه وبصره للحق، فلا يتعالى، لأنه لا ينال العلم مستكبر، بسبب حجب السمع عن سماع الحق إذا كان ممن لا يحبه، أو يستنقص قدره. مما يفيد أهمية التواضع، وأهمية تعليم المتعلم التواضع وما يحققه من تظافر السمع والبصر في إدراك الخير والهدى والحق.

ثم يختم الله تعالى ذلك بذمهم الذم الشنيع، من أن حالهم كحال من يناديه غيره من مكان بعيد، ويحذره، ولكنه لا يسمع، فلا ينتفع بما يحذره منه، بينما واقعهم أن من يحذرهم هو بين أيديهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فهم كمن يُنادى من غيره من مكان بعيد، فلا يسمعون ولا يبصرون الحق كحال من يُنادى من غيره من مكان نائي في بعده. بما يبين شدة بُعدهم عن الانتفاع بما جاءهم إلى حدهم ومكانهم. فهو بيان بليغ في كشف المسافة بينهم وبين سماع القرآن الكريم، وسماع هدي الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، فإنهم جعلوا المسافة بينهم وبين الحق بعيدة جداً، فلا مكان لانتفاعهم بما جاءهم من الحق، مهما ناديت وعملت وحاولت. بما يفيد تَعَذّر انتفاعهم، وبالتالي لا تنشغل بهم أيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا تتألم من شرودهم، فاتركهم، فسيجدون ما يقابل شرودهم ومعاداتهم للحق. ولا تنشغل بهم عن غيرهم. فاستمر في منهج دعوتك ولا تتوقف عندهم.

ومن بديع البيان العظيم أن الله تعالى أشار إليهم باسم الإشارة الذي يفيد البعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ليتساوى بُعدهم عن الحق مع بعدهم اللفظي من السماع والرؤية، وإظهار قوة وطول مسافة المباعدة، ثم ذكر مناداتهم بقوله تعالى ﴿يُنَادَوْنَ﴾ وهو النداء الذي يبين أنه نداء بعيد، بسبب أنهم صَمُّوا آذانهم، وأقفلوا أبصارهم، وكذلك جعل الفعل مبني على ما لم يُذكر فاعله، وهو المنادي، ليفيد كثرة النداء وكثرة المنادين لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الإيمان، فإن المنادين لهم كثير جداً. كما ورد بصيغة المضارع المستمر، الذي أفاد استمرار المنادين لهم بالتحذير مما هم عليه. ولكن مع كل هذا فإنهم عن الحق في بُعد وجفاء سحيق مع القرب المكاني، حتى أصبح حالهم كمن ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فحالهم هو حال من يُنَادى من مكان بعيد، فيسمع الصوت ولكن لا يدرك مضمونه، فهم يسمعون الحق بما قامت به عليهم الحجة، وامتنعوا عن الاستجابة لها. فهو بيان غاية في تصوير حالهم بأدق السياق الذي بلغ مبلغ الإعجاز في تراكيب كلماته، وبناء سياقه، وانتقاء ألفاظه، وجمال سبكه. ليكون إعجاز ظاهر للقرآن الكريم بأنه من عند الله تعالى، إذ لا يستطيع ذلك السبك والبيان غير الله جَلَّ جلاله.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

ومن رحمة الله تعالى تعاهده لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يزيده ثباتاً، ويشد من أزره، ويعزيه على ما يواجه من قومه، فيبين له بأنه كما افترق الناس عليك فكذلك حصل أن افترق أهل الكتب على موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فلقد آتينا موسى التوراة، فاختلف قومه عليه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فإن قوم موسى عليه السلام قد افترقوا عليه، فمنهم من صَدَّق به، ومنهم من كذب به، بما يفيد: وأنت كذلك أيها النبي قد أنزلنا عليك القرآن، فافترق عليك الناس، فمنهم من صدق بك وآمن، ومنهم من كذبك، وحمل لك العداء، فلا تحزن مما تواجه من صدود بعضهم، ومناكفتهم لك في ما أُرْسِلت به من الحق. فكذلك شأن الأنبياء، ومنهم موسى عليهم الصلاة والسلام.

ومن دقائق السياق الكريم أنه تم افتتاح البيان بأداة التوكيد والتحقيق المتصدرة بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لتفيد تأكيد البيان، كما أن في دلالة ﴿ ءَاتَيْنَا مُوسَى ﴾ ما يفيد تعيين وتخصيص الرسول الْمُعْطَى الكتاب، بأنه موسى عليه السلام، وقد اختاره ربه من بين غيره من الناس، مع بيان العناية من الله تعالى بشأن العباد، إذ أرسال الرُّسُل إليهم، لعلهم يهتدون.

ثم يبين سبحانه وتعالى سبب عدم تعجيل العذاب لمن كفر، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ فلولا أن الله تعالى قضى بفضله ورحمته بأن لا يستعجل على عباده، لفصل وقضى بين المكذبين وبين المؤمنين بعذاب من عنده تبارك وتعالى، فَيُهلِك به القوم المكذبين، وينجي منه المؤمنين. مما يبين عظيم حِلم الله تعالى على عباده. وأن على العباد أن يحذروا من حلمه عَزَّ وجل، فإن حلم الله تعالى لحكمة عظيمة، منها: لعلهم يتوبون ويرجعون عن ضلالتهم، أو بعضاً منهم. وهذا من عظيم رحمته عَزَّ وجل.

ثم يكشف الله تبارك وتعالى ما في قلوب المكذبين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فإنهم في شك من حقيقة القرآن، وهذا الشك ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: متصف بالارتياب المشبوه. ففي حال أن دلالة ﴿مُرِيبٍ﴾ تقع على شكهم، فيكون المعنى: أن صفة شكهم مريب، لتعطي فائدة إضافية، بأن شكهم ليس بالشك الحقيقي، بل هو موطن للريبة فيهم، بأنهم يحملون مقاصد ونوايا يتخفون بها. والمعنى الآخر هو: أنهم ممترون فيه، ينازعهم الشك، فشكهم مُوجد ومُوقِع لهم الريبة. وهو تأكيد لشكهم في القرآن الكريم. أي: كانوا في شك، متصف بالارتياب، فَوُصِفَ شكهم بالريبة، للمبالغة في صورة وهيئة شكهم، فَزِيد في وصفه بأنه ﴿مُرِيبٍ﴾ ممتلئ بسوء الظن، فشكهم بسبب ما في قلوبهم من الريبة والظن السيء. مما يفيد أن الظنون السيئة تملأ القلب شكاً، فيتعامل الشاك بسوء الظن، فيبتعد بشكه عن الحق بعداً يُقصيه عن الحقيقة. مما يبين خطر هذا المسلك في حياة الإنسان وتعاملاته وتصرفاته. اللهم إنا نسألك اليقين والثبات على الحق بفضلك ومنك وكرمك يا رب العالمين.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يُريبهم قولهم فيه ما قالوا، لأنهم قالوا بغير ثبت، وإنما قالوه ظناً[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لِمَا قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه، غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجه ابن جرير وهو محتمل والله أعلم[٢] وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن معنى الريب: الشك، فوصف الشك بالريب لقصد المبالغة، بأن اشتق له من اسمه وصف[٣] فَوصِفَ الشك بالمريب لإفادة التأكيد.

وفي حال أن دلالة ﴿مُرِيبٍ﴾ تقع على شكهم، بأن صفة شكهم مريب، فإنها تفيد فائدة إضافية، بأن شكهم غير حقيقي، بل هو موطن للريبة فيهم، إذ يحمل ما يقولونه ويعلنونه من الشك أن لديهم مقاصد يخفونها، فجعلت شكهم الذي يعلنونه مصدر للريبة فيهم وفيما قالوا وأظهروا من الشك، لأن ليس في القرآن مورد للشك أصلاً. فشكهم في القرآن شك مريب ليس حقيقة وإنما يحمل مقاصد لهم يُخفونها. ومما يؤكد هذا المعنى أن الله تعالى أثبت في سورة الأنعام أنهم لا يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم في قرارة أنفسهم بل

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٤٥٣-٤٥٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٢/٤)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٦٧/٩)

يجحدون ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ مما يفيد أن شكهم ليس حقيقة بل محل الريبة، فالريبة متعلقة وواقعة على شكهم.

ومن جميل البيان رحابة دلالته، لتستوعب المشركين إن قُصد به القرآن الكريم، وتستوعب قوم موسى إن قُصد به أهل الكتاب، وكذلك ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي: لقضي بين قوم موسى، فاستعجل لهم العذاب، واغرقهم من بداية اعتراضهم واختلافهم، ولكن أمهلهم حتى قضي بينهم. وتأتي بمعنى: لقُضِي فيما بين قوم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين، بأن يعذب الله تعالى الكافرين وينجي المؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: أني أخرت أمتك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلت عقاب من كذبك[١] وهذا من الإعجاز البياني الذي أعطت دلالاته المقاصد المتوافقة، من غير تعارض ولا تضاد، فسبحان من أعجز بكلامه عباده أن ينظموا مثله.

ثم يؤكد تبارك وتعالى كمال عدله في الجزاء، فقال جَلَّ شأنه ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ من عمل الصالحات التي أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بها، باتباع دينه كما شرع، فإن عمله وثوابه عائد عليه، فيكون قد مهد وهيأ لنفسه بما يجازيه الله تعالى به من الفضل. ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ ﴾ فإن خير وثمرة ذلك العمل الصالح عائد له وليس لغيره، فقصر الاستفادة التي يبذلها عليه، فثمرة وثواب جهده من الطاعة له. وأما ﴿ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ ومن أساء بترك الدين، أو أخل به فإن ضرر وجزاء ذلك عليه، فلن يتضرر به أحد غيره. فيكون الجزاء مقصور عليه. لإفادة أن كل نفس بما كسبة رهينة بخيرها أو شرها. فانتبهوا أيها العباد لشؤونكم ومصالحكم في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال عدله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فوصف تبارك وتعالى قضاءه بكمال العدل. فلن يظلم ربكم أحداً من العباد، فلن يزيد سيئة أو يُنقص حسنة، بل يوفي كل نفس بما كسبت. فلن يعاقب أحداً إلا بذنبه الذي اكتسبه. مما يفيد أن عمل العباد هو مناط الحكم. بل أورد سبحانه وتعالى انتفاء ظلمه عن عباده بصيغة المبالغة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فدلالة ﴿ بِظَلَّٰمٖ ﴾ تفيد المبالغة في نفي الظلم عنه عَزَّ في علاه.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وكل من يسأل عن موعد يوم القيامة، بأن مرد علم ذلك إلى الله وحده فقط، ويجمع مع ذلك البيان النهي عن هذا السؤال. وكذلك بيان كثرة جهل الإنسان بما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٦/٤)

يحيط به من القريب، فكيف له أن يسأل عما لا قدرة له أن يعلمه، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ فإن عِلم موعد الساعة الذي هو يوم القيامة عائد لله تعالى ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فليس لأحد علم بذلك من خلقه. فالجميع يَرُدُّون علم الساعة لله سبحانه وتعالى، لأنه استأثر بذلك عَزَّ في علاه.

ثم يزداد الكشف بالبيان للعباد إيضاحاً عَمَّا خَفِي علمهم عنه، مما يعايشونه، مع دقة علم الله تعالى له، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ فينبه سبحانه وتعالى عباده إلى أنه لا يغيب عن علمه عَزَّ وجل شيء من شأن خلقه أبداً. ومن ذلك ما سيخرج من ثمرات الأشجار من أوعيتها التي ينبثق منها الثمر، قبل خروجه. ولا تضع حامل مولودها إلا يعلمه سبحانه وتعالى، ويعلم ما سيكون عليه قبل أن يكون، بينما تضعه الحامل وهي لا تعلم أهو ميت أم حي؟

وبالمقارنة عليهم أن يتأملوا جهلهم بما تحمله أكناف وأوعية الثمار، وما تحمله الحوامل، من الإنس والحيوان والدواب. بما يكشف لهم محدودية علمهم، وعمق جهلهم في محيط ودائرة ما يعايشونه. وبالتالي كيف لهذا الإنسان أن يسأل عما لا قدرة له أن يعلمه ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ فقد سبق علمه سبحانه وتعالى بما سيخرج من ثمرات الأشجار من أوعيتها وأكنافها التي ينبثق منها الثمر، في حين أن بني آدم لا يعرف ذلك مع قربها منه، ومعايشته لها، وكذلك معرفته عَزَّ وجل بما تحمل الشجرة من الثمر، بينما لا يعرفه المزارع والساقي لها إلا بعد ظهوره وبروزه. وكذلك جهله بما تحمله الأنثى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ ﴾ من الحمل، فسبحانه وتعالى يعلمه، في حين أن الحامل لا تعرفه. فالجهل لاصق بالإنسان، فليست معرفته متحققة لكل شيء حتى فيما يخصه من شأنه، فمن باب أولى أن لا يسأل عن موعد الساعة التي أخفاها الله تعالى. وهو جاهل بما ذكره تبارك وتعالى مما هو قريب منه، ويعايشه في حياته.

ومن دقائق البيان أن شملت دلالة ﴿أُنثَىٰ ﴾ كل أنثى من بني آدم، بل جميع الإناث من كل ما يدب على الأرض، أو يطير في السماء، من الطيور والحشرات والحيوانات ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ فلا تحمل ولا تضع مولودها إلا بعلمه، بل يعلم ما سيكون عليه قبل أن يكون، بينما الحامل تضع حملها وهي لا تعلم أهو ميت أم حي، أهو مكتمل أو ناقص، إلا بعد أن تراه وتنظر إليه وتتفقده. وبهذا يتبين لكم عمق الجهل منكم في ذلك، ثم تطمعون في معرفة موعد الساعة، بما يفيد التمادي والتطاول والتعدي في

السؤال الذي ليس لهم فيه حق المعرفة. ومما يفيد أن عليك أيها الإنسان أن تعرف حدود علمك ولا تتجاوزه إلى ما منعك الله تعالى من معرفته. مما يعلم الإنسان محدودية وحدود علمه، فعليه أن يتأدب بها مع ربه وخالقه تبارك وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم بالْمُخَاطَبين مباشرة إلى ما يجب أن يعرفوه، ويؤمنوا به، فهو خير لهم ممالا نفع لهم في معرفته، ولا ينتفعون به، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ فإن في يوم القيامة ينادي اللهُ تعالى المشركين، أين ما كنتم تشركونهم معي في عبادتي؟ أين هم عنكم؟ لماذا لم يظهروا فيدفعوا العذاب عنكم؟ فتكون الإجابة بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أعلمناك يا ربنا بأنه ليس منا من يشهد بأن لك شريك، فإنه لا أحد منا يشهد بأن لك شريك.

فلما عاينوا يوم القيامة وأهوالها اعترفوا بأن ما أنكروه في الدنيا من التوحيد قد أصبح حقيقة، فتبرأوا واعترفوا بأنه لا شريك لله تعالى، فإنه واحد أحد، فرد صمد. فيقولون: ﴿ ءَاذَنَّٰكَ ﴾أي: أعلمناك يا ربنا ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ ليس منا من يشهد بأن لك شريك، فإنه لا أحد منا يشهد بأن لك شريك، فأنكرنا ما كان منا، باعترافنا أنك الله الواحد الأحد، لا شريك لك. فليس منا، ولا واحد يشهد بأن لك شريك. فهو اعتراف جماعي من جميع المشركين. وفي هذا تعليم لهم بما سيكونون عليه يوم القيامة، فاعرفوا ما ينفعكم واسألوا عنه بدلاً من السؤال عن موعد الساعة. مما يفيد أن على الإنسان أن يشتغل بما هو نافع ومفيد له، ويترك ما ليس له فيه شأن، ولا نفع له فيه، فعليه أن يشتغل فكراً وعملاً بالصالح والمصالح النافعة له في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى سوء مصيرهم، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فقد ذهب وتاه وعدل وافترق عنهم ما كانوا يفترون من الشركاء، ففقدوهم ولم يجدوهم أمامهم. فلم ينطقوا بما كانوا يفترونه من الكذب في الدنيا، إذ غاب وذهب عنهم ذلك الوقت ما كانوا ﴿ يَدْعُونَ ﴾ أي: يخترعون ويختلقون من الأباطيل، من أن مع الله تعالى آلهة تُعبد. فتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا. فلم ينتفعوا بشركهم، بل أوردهم النار وبئس المصير. وفي هذا البيان فائدة التحذير من الشرك، وإبطاله، وأن الله تعالى يعاقب أهله بأشد العذاب، ويكون موقفهم يوم القيامة خزي وندامة، حين لا تنفعهم ندامتهم شيئاً. فنسأل الله تعالى السلامة والهداية والتوفيق.

ثم حَكَموا على أنفسهم بأنه لا منجى لهم من العذاب ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فجزموا بأنه لا عدول لهم عن العذاب، فهو متحقق فيهم. وبالتالي أيقنوا أنه لا فائدة اليوم للصبر ولا للجزع، فالعذاب متحقق

فيهم جميعاً ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: جزموا، فالظن هنا بمعنى الجزم واليقين ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أن العذاب واقع فلا ﴿مَّحِيصٍ﴾ عنه، أي: فلا مهرب منه، فليس لنا ما يتحقق به التباعد عن العذاب. فقد استوى الآن مقام الجزع والصبر، فلن يحقق لنا مهرب ولا نجاة من العذاب. فإنها صورة الألم والحسرة، الذي يتشكل منه العذاب القلبي والنفسي، والذي تمتلئ به نفوسهم من ألم الندامة لَمَّا قُضي الأمر الذي لا رجعة لهم فيه، حتى يتمكنوا من إصلاح حالهم. فإن في ذلك عبرة، ومشهداً، كأن المُخَاطَب يعاينه من قوة كلام الله تعالى، وعظمة بيانه. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك برحمتك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا
مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ
لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ
أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى
مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن بعض تفاصيل مكنون هذا الإنسان في استكثاره من طلب الخير، وقنوطه إن فارقه ما يحبه ويميل إليه من الخير، فقال تعالى ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ لا يمل هذا الإنسان من طلب الخير لنفسه، والاستكثار منه، كالصحة والمال والوجاهة والمكانة والرفعة والسلطان، وأما حاله عندما يمسه شيء من الضر والبلاء والشدة، كالفقر والمرض، فإنه ينتابه اليأس من أن يعود إليه ما فقده من الخير، وأن يعود إلى ما كان فيه من النعمة. بما يفيد الانتباه لهذه الحالة، ومقاومتها بالصواب من التعامل مع النفس، والحذر من الاستطراد في ذلك.

وقد عمم البيان بتقرير حالة الإنسان فيما هو غالبٌ عليه من أحوال النفس البشرية، بما لا ينافي ويعارض خروج الصالحين من الناس عن عموم هذه الصفات، فقال تعالى ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ لا يمل، ولا يكل، بما يفيد لا يشبع ولا يشعر بالكفاف، الذي يبين قوة الطمع في جلب الخير، والاستكثار منه، حتى بعد كفايته

منه. ثم ذكر تبارك وتعالى التصاق هذه الخصلة بعموم الإنسان ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: جنس الإنسان، لإفادة أن هذا هو الغالب في جنس الناس. ومن دقائق السياق أن استهل البيان بما يُشَوِّق المتلقي على الرغبة في معرفة موضع شدة ذلك الميل، الذي تنتفي منه السآمة. ثم يقول تبارك وتعالى ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ فموقع عدم السآمة عند الإنسان هو ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: طلب الخير واستجلابه، والتكثر منه، بما يفيد: ليس لدعائه وطلبه حدود يكتفي بها. كطلب المال مثلاً، لا يكتفي بما يسد حاجته، بل لا يسأم أن يستكثر منه، ويجتهد في طلبه والبحث عنه والاستكثار. ومن دقائق البيان أن استوفت دلالة ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ جميع أنواعه، من الصحة، والمال، والوجاهة والمكانة، والسلطة، وسعة النفوذ، والشرف. وكذلك من دقائق البيان أن ورد الدعاء عاماً ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ ليشمل دعاء الطلب، بسؤال الله تعالى، ويشمل دعاء الطلب بالبحث والأخذ بالأسباب، فيشمل بذلك جنس الإنسان عموماً، ممن يؤمن بالله تعالى فيدعو ربه، مع طلب مراده بالأسباب، ويشمل كذلك الكافر الذي يسعى في طلبه من خلال الأسباب.

وهذه الخاصية أو الصفة تكشف قوة التحليل الدقيق من رب العالمين لهذا الإنسان في أحوال طلبه وبحثه، بما يفيد أهمية الانتباه لها، والاستفادة منها، وجعلها في مسارها، فإن الإنسان يتجاوز بها ما لم يتهذب بأخلاق الدين وتعاليمه الكريمة، التي تضبط مساره في كل شأن. كما أن هذه الخاصية من حيث الأصل فهي قوة داعمة للإنسان في بذل الجهد وقوة الإرادة في استجلاب الخير للنفس بجميع أنواعه، مع محبة الاستكثار منه. إذ بها تتحقق المنافع له، وقد يحصل بذلك الخير لغيره باندفاعه وطمعه في استجلاب الخير، إذ لا بد له ممن يعينه، من الأسباب التي عند غيره. بعكس لو لم يكن عنده هذا الاستكثار لتوقف، وتوقف معه غيره، وتوقف انتفاع غيره منه، وبه. وفي نفس الوقت يفيد هذا التشخيص والبيان من الله تعالى إلى أهمية الانتباه لهذه الخصلة، وتهذيبها بضبطها بضوابط الشرع، فلا ينحدر بها إلى الظلم والبغي، ولا إلى اليأس والقنوط. ولذلك فإن حال أهل التقوى الضبط والانضباط، فلا يتطاولون بها إلى البغي والأشر والبطر، بل يجعلونها وفق ضوابط شريعة الله تعالى التي ضبطت عواطف ومطامع الإنسان.

ولما أن تلك الحال تمثل قوة الإرادة في الطلب، فيقابلها قوة الضعف والانكسار حال فقد الإنسان لبعض ما يحب، عندما يصيبه ما يكره من الأمور. فقال تعالى ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وفي حال فقد هذا الإنسان لشيء مما يتمتع به من الرزق، كالصحة، أو المال، أو الجاه، فإنه يحصل له اليأس من عودة ما فقده. وورد ذكر الشر عاما ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ ليستوعب جميع أنواعه ودرجاته، سواء كان في ماله بالقلة أو الفقر أو النقص، أو في صحته بالمرض، أو في مكانته ومنزلته.

كما ورد بيان الإصابة بالشر من خلال فعل الملاصقة، وهو المس ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ الذي يفيد الملاصقة من قوته وشدته. فورد بيانه بأدق الوصف، وهو المماسة. كما ورد حصوله بصيغة التقليل، بما يفيد إن حصل ذلك ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ فهذا في حال إن أصابه الشر. ليفيد أن رحمة الله تعالى واسعة، بأنه ليس ذلك الغالب، بأن يُصاب كل أحد، بل إنه في حالة الإصابة بذلك المس من خلال أحد ألوانه وأنواعه ودرجاته المختلفة.

فإن حال الإنسان عموماً إن أصابه الله تعالى بشيء من ذلك ليختبره، أو يعاقبه، أو ليصلحه بذلك المس، فإن حال هذا الإنسان هو ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ فتنتابه حالتان قويتان، تدل على عدم تحمله، وسرعة الظن السيء، مع قوته وشدته. ليكشف به الله تعالى حقيقة ضعف الإنسان عندما ينتابه ما يكره. فقال تعالى ﴿ فَيَـُٔوسٌ ﴾ واليأس هو: زوال الرجاء عند الإنسان، فليس له في قلبه مكان من الأمل، وكذلك فهو ﴿ قَنُوطٌ ﴾ والقنوط هو: اليأس من تحصيل الشيء، أو عودته له بعد فراقه. فهو: حالة من ضعفت إرادته في طلب ما ضاع منه وفقده، من مال أو جاه. فيمثل القنوط الحال الأشد من اليأس، بحيث ينتقل ذلك من قلبه إلى إرادته، فتضعف عن محاولة الطلب لاسترجاع ما فاته، فينكسر في كل شيء، حتى أنها تظهر على ملامح وجهه وتصرفاته.

ومن دقائق البيان أن بعض أهل التفسير قالوا: يراد به الكافر عموماً، وقال البعض يراد به الوليد بن المغيرة. قال السدي رحمه الله تعالى: والإنسان ها هنا يراد به الكافر، وقيل الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة وشيبة أبناء ربيعة، وأمية بن خلف[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى بعد أن أورد ما سبق من الأقوال: والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خُلَّص العباد[٢] وقال السعدي رحمه الله تعالى: هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير، ولا على الشر إلا من نقله الله تعالى من هذه الحال إلى حال الكمال[٣] مما يبين استيعاب الوصف للمخصوصين من باب الذم الهم، سواء كانوا أفراداً، أو عموم الكافرين، كما أنها شاملة لجنس الإنسان، ويخرج منهم أولئك المتقون، الذين هم خُلَّص العباد، مع تفاوتهم بحسب قوة إيمانهم ويقينهم. وهذا من دقائق البيان في استيعابه للمراد من كل وجه، مما يظهر به دلائل الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٣/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٢٢/٤)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٠٥/٤)

وفي هذا البيان تنبيه من الله تعالى لهذا الإنسان عن حقائقه النفسية، ليرشده أن يتجنب ذلك، بالبعد عن اليأس والقنوط، ويأخذ بالرجاء والأمل الذي يدفعه للجد والاجتهاد والنشاط، وسرور القلب. ولذلك يظهر ذلك عند أهل التقوى، فإنهم لا ينكسرون، بل يكثر منهم الإلحاح على الله تعالى في الطلب، ويفتشون عن مواطن التقصير في أنفسهم، ويجمعون بين معالجة أنفسهم وما قصروا فيه من طاعة ربهم سبحانه وتعالى، وبين الأمل، والدعاء، والسعي في طلب ما ذهب منهم وفقدوه، وما حصل لهم وأصابهم من الشر. فيعاودون نشاطهم بشيء من اليقظة والتصحيح لمسارهم، مع قوة العودة إلى ربهم. ويتحملون ما أصابهم بالثقة في الله تعالى أنه سيغير أحوالهم للخير والفضل.

ويزداد البيان من الله العزيز العليم في الكشف عن حقائق الإنسان الكافر وطويته، بما ينبهه نحو الحذر من تلك الدوافع التي حَلَّت به بسبب كفره، وأن الواجب عليه أن يُطَوّعها في المسار الصحيح بالإيمان وطاعة ربه الرحمن الرحيم وفق ضوابط شريعته الغَرَّاء التي ضبطت جميع عواطف وانفعالات هذا الإنسان إذا أخذ بها. فقال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فحال الإنسان الكافر أنه إذا ألبسه اللهُ تعالى الخير بعد ما كان فيه من الشدة والبلاء، فإنه لا يحمد ربه تبارك وتعالى على ذلك، بل يطغى ويتفاخر معتقداً أن له وجاهة عند ربه، بأن أذهب عنه ما يكره، وأعطاه ما يحب، مضيفاً إلى ذلك كفره بالآخرة، فيقول ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ مما يفيد أنه كافر بالبعث والحساب والجزاء. ثم يقول من قوة استبعاده للبعث أنه فيما لو حصل سيكون له عند ربه سبحانه وتعالى الثواب والمنزلة الحسنة ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ وهذا من باب الاستبعاد فيما لو رجع، وكذلك حال أنه وافق وآمن بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فإن له الكرامة. مما يبين نعمة الإيمان في تفسير أحوال الإنسان وتقلباتها.

وقد بدأ البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَئِنْ ﴾ الذي بدأ مطلعها بحرف **(الواو)** والذي أفاد الاستئناف والابتداء. ثم تلاه لام القسم، ثم حرف **(إن)** الذي أفاد الشرط، ليفيد التحقيق والتأكيد لهذه الصفة، وهذا التصرف بأنه تصرف الإنسان الكافر على هذا النحو. وتم تخصيص الإنسان الكافر باعتبار إنكاره للبعث. كما أفادت تقليل الإصابة بهذا البلاء، أي: قليلاً من يصيبه اللهُ تعالى بالضراء، لسعة رحمته بالناس عموماً، كما قال تعالى في سورة الحج بعد أن أورد إنعامه بالنعم، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ولكن قد يكون ذلك للابتلاء والاختبار، أو لعل العاصي والكافر يرجع إلى صوابه، وذلك

من باب رحمته، وقد يكون عقوبة لمن حقت عليه العقوبة. وقد تكرر عزو النعمة له تبارك وتعالى، تأكيداً بأنه هو المنعم ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ والثانية: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لإظهار التأكيد بأنها من الله تعالى، وأنها مقصودة بعناية منه سبحانه وتعالى، وليست بسبب وعلة غير عطاء الله سبحانه وتعالى، وتدبيره ورحمته.

وقد ذكر تبارك وتعالى ذلك الإحداث بصفة ودلالة الإذاقة ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ ليدل على قوتها وعظمتها، حتى شعر بها شعوراً يماثل تذوق جارحة اللسان. لأن دلالة الذوق معبرة عن قوة ما أصابه من رحمة الله تعالى، بل ونسب فعل الإذاقة له تبارك وتعالى، لبيان كريم تفضله على عبده، كما سمَّى ذلك العطاء رحمة ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً ﴾ والرحمة جامعة لكل نعمة من الله تعالى، فاستوفت بعمومها جميع أنواع الإنعام، فإذا أنعم الله تعالى بنعمة بعد فقد صاحبها لها، ويأس بعد فقدها من رجوعها.

وقد وردت هذه النعمة التي تذوقها العبد من الله تعالى تفضلاً وتكرماً ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ فقد جاءته النعمة بعد مسيس الضر له بفقدها. فأصبح في وقت هو في مسيس الحاجة لها، حينما كان يعاني من شدة ضرر ذلك الأمر الذي مسه. مما يستوجب منه أن يشكر ربه تبارك وتعالى، ولكن كان موقفه كما قال الله تبارك وتعالى عن جواب هذا الإنسان ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ فيقول هذا الذي أصابني من الخير ﴿هَٰذَا لِي ﴾ هذا استحقاق واجب استحقه بعملي، فأنا محقوق به. بل ويتمادى في الطغيان ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ يجزم بعدم العودة إلى الله تعالى، بإنكاره البعث، فينكر وقوع الساعة التي هي يوم القيامة، وبالتالي ينكر الحساب والجزاء. ثم يُضيف على تقدير صدق الساعة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ففي حال أنني صدقت بذلك البعث ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ فإن له عند ربه عَزَّ وجل الكرامة والمنزلة الرفيعة من الخير الحسن. مما يبين أن الكفر يجعل تفسير النعمة على غير مراد الله تعالى وحكمته وشريعته، كما يبين ذلك أن نعمة الإيمان عظيمة في تفسير وتأويل أحوال الإنسان وتقلباتها في أنواع البلاء.

ثم يتوعد الله تعالى من كانت هذه صفاتهم ومبادئهم من الطغيان، فيقول جَلَّ جلاله ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فأولاً إعلامهم بما كان منهم في الدنيا، مع ابتلاء الله تعالى وإنعامه عليهم ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ وفي تخصيصهم بكفرهم ما يبين أن هذا المسلك هو مسلك الكافر وليس للمؤمن فيه نصيب. وبعد الإعلام الذي يفيد التوبيخ واللوم، وإثارة الحسرة على ما كانوا

عليه في الدنيا من الكفر وإنكار البعث، يأتيهم العذاب الشديد ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي: عذاب متصف بالصلابة من شدته وقوته. وفي هذا تنبيه وتحذير من الله تعالى للطاغين، ليعودوا إلى رشدهم، ويقلعوا عما هم عليه، ويعودون وإلى حقيقة الإنعام، وشريعة الله تعالى، وأن هناك بعث وحساب وجزاء. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بهذا الإنسان حتى يعود لرشده وللحق، ويفوز بالدنيا والآخرة. ولكن البعض من الناس يتعالى من قوة الاستكبار والعناد، فيكون استحقاق الجزاء من ظلمه لنفسه، يسبب ما كان منه وكان عليه في الدنيا.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من صفات هذا الإنسان التي يجب أن يحذرها، فقال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فإن من صفات هذا الإنسان عموماً على غالب أفراده، أنه حال إنعام الله تعالى عليه يبتعد ولا يُقبِل على الله تعالى بالتقرب والدعاء والشكر والطاعة والامتثال لدينه ولربه الحكيم ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ ﴾ أي: امتنع عن شكر الله تعالى على ما أجزل عليه من النعمة ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تكبر وابتعد بنفسه عن الانقياد للحق. فهيئة تصرفه هي هيئة المتنائي والمتباعد والمستغني. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ وأما في حال أن مسه الشر من المرض والفقر والحاجة والفاقة فإن حاله في الدعاء والافتقار والاستغاثة عريض ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي: توسَّع في الإلحاح، والتكرار. فكانت مساحة الدعاء من حيث الكثرة والتكرار والوقت كثيرة جداً، فكانت هي شغله الشاغل، حتى اتصفت بالعريض ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فليست بالقليل، ليدل على الامتداد في الإلحاح والرجاء والاستغاثة، بينما عند حصول النعمة كان في إعراض واستغناء عن شكر الذي أغناه سبحانه وتعالى، فإنه عَزَّ وجل هو الغني المغني تبارك وتعالى.

فهذا التحليل الرباني الدقيق لحال الإنسان الجاحد ما يبين ويوضح حالة الإنسان مع ربه عند حصول النعمة، فإنه يكون في منأى وبعد عن الدعاء والشكر، فحاله هو حال المستغني بما عنده. وأما في حالة الشدة من العسر وغيرها فإنه يكون في أقوى حالات الإلحاح في الطلب والافتقار. وفي هذا مزيد من التنبيه للإنسان بأن يبتعد عن هذا المسلك المنافي للطاعة والشكر لله سبحانه وتعالى بما أنعم وأعطى من رحمته. ففي حالة الرخاء يجب أن يكون كثير الشكر لربه عَزَّ وجل، وكثير الدعاء بأن يحفظ عليه ما هو فيه من النعمة، وأن يزيده من فضله. فيظهر بمظهر الفقير والمفتقر لربه تبارك وتعالى. ليكون حاله مماثل لحاله عندما كان في شدائد الضر، بكثرة الدعاء والالتجاء إلى ربه مما أصابه من الضر.

ثم بعد أن شرح وأوضح تبارك وتعالى حال الإنسان مع النعمة ومع المنعم سبحانه وتعالى يعود الخطاب إلى الكفار من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول جَلَّ في علاه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أعلمتم إن كان هذا القرآن العظيم من عند ربكم. فلم تصدقوا به، وجحدتم كتاب ربكم. فهل هناك أحد أكثر ضلالاً بما وقعتم فيه من الشقاق والخلاف الذي أبعدكم وبَعُدتمَ به عن الحق ونأيتم به في منأى سحيق عن الخير، حتى اتجهتم نحو الضلال وأوغلتم فيه، فبَعُدتم به عن ربكم سبحانه وتعالى، وعن نجاتكم من عذاب ربكم عَزَّ وجل.

فبدأ الخطاب بالسؤال ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ التي تفيد الرؤية القلبية والتأملية. بمعنى أخبروني فيما استخبركم عنه، أرأيتم فيما لو كان هذا القرآن من عند ربكم سبحانه وتعالى، وكفرتم به؟ وهو سؤال تقريري يقرر فيه المشهد الذي هم عليه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فأخبروني إن كان هذا القرآن العظيم من عند ربكم ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ فلم تصدقوا به، وجحدتم كتاب ربكم. ليتبين لهم من هذا السؤال أن جحودهم وإنكارهم لم يكن بعد تأمل وتدبر وتفكر، وإنما من باب العناد والمجازفة بأنفسهم في الباطل بالتكذيب والإنكار. وبما يفيد: لو أنكم تأملتم لأدركتم الحق. كما أن في هذا السؤال تخويف وتهويل لهم بأن ينتبهوا ويتحققوا من حال أنفسهم تجاه القرآن ورسالة رسوله صلى الله عليه وسلم. كما فيه شد انتباههم إلى ما ينالهم من العذاب حال كون ما أنكروه هو من عند الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ سؤال يعيدهم إلى التريث وعدم الاستعجال، لأن العاقبة والعقوبة ليست بالأمر السهل واليسير. مما يُعَلِّمُ الإنسانَ بأن لا يحكم في شأن من الشؤون إلا بعد أن يتأمله من كل وجه. وهي منهجية عميقة الأثر في تربية النفس والفكر على التأمل والتفكر، وعدم التسرع. وفي هذا ما يدل على رحمة الله تعالى بوعظه للكافرين الجاحدين.

ثم يوقفهم سبحانه وتعالى على النتيجة التي تبين أن من جحد به فإنه في أعمق ما يكون من الضلال ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ سؤال يقرر به عَزَّ وجل عمق ضلال من كفر بكتابه القرآن العظيم. فهل هناك أحد أكثر ضلالاً ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فلا أحد أضل ممن جحد كتاب ربه العزيز العظيم، وبالتالي فلا أحد أكثر ضلالاً بما وقع فيه من الشقاق والخلاف الذي أبعده وبَعُدَ به عن الحق، ونأى به في منأى سحيق عن الخير، فاتجه نحو الضلال. وبالتالي تأملوا حال هذا النائي والمكذب بكتاب ربه.

فقد وضعهم البيان الكريم أمام أن يتصوروا حاله، ليقرروا حالهم على ضوء هذا البيان الذي يستحثهم على التفكر والتأمل، بدلاً من التعاظم والتكبر على كتاب الله العزيز العظيم. فلا يسعهم إلا الإيمان والتصديق بكتاب الله العزيز الكريم، وذلك لانتفاء موانع الإيمان به، مع ثبوت انتفاء جميع موارد الشكوك البتة.

فبعد بيان عقوبة ومخاطر مشاقة كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، يبين سبحانه وتعالى إعجازه الدلالي على صدق كتابه، بأنه سيجعلهم يرون الدلائل المصدقة لكتابه في نواحي الدنيا، مما يحيط بهم من الكون، وكذلك في أنفسهم، فقال تبارك وتعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فوجه الخطاب الكريم لكل مُكلف ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويلحق به جميع المُخَاطَبين ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ سوف نُري هؤلاء المنكرين للقرآن صدق هذا الكتاب ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ فسنريهم آياتنا وحججنا في نواحي الكون. أي في جميع اتجاهاته المتعددة، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وعلواً وارتفاعاً، ومما بين أيديهم وتحت أرجلهم، وغير ذلك. فسنريهم آياتنا وحججنا في نواحي الكون. لأن الأفق هو الناحية، ولأفاق جمع ناحية، ليشمل النواحي المتعددة مما يحيط بهم من الدلائل الكونية. مما يفيد أن من تأمل مشاهد الكون، وما تضمنه القرآن الكريم، لأيقن قوة الترابط بين الكون ومجرياته وبين تفسير القرآن لهذا الكون، من الإنبات والزروع، والإحياء بعد الموت، وإنزال الماء، وسوق الرياح له، ومظاهر الشمس والقمر، والليل والنهار، والكواكب، والبحار والأنعام، وما تحمله لهم من المتاع، وما يتاجرون به، وغير ذلك.

ثم أعقب ذلك بأنه سيريهم آياته من الحجج والبراهين في أنفسهم ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ سواء في ذواتهم، أو في جنس الإنسان عموماً، من كمال أطوار الخلق التي يمرون بها في بطون أمهاتهم، أو بعد خروجهم، ومن الموت، والحياة، وانتصار المرسلين وانهزام الأعداء، وانتصار رسوله صلى الله عليه وسلم، وفتح البلدان، وإقبال الناس على الإيمان والتصديق، والعناية بالقرآن. ثم يذكر تبارك وتعالى الغاية والهدف ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فالهدف والغاية هو تصحيح مفاهيمهم وعقولهم ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ من تلك الآيات في الأفاق وفي أنفسهم ﴿ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ أن القرآن حق لا يقبل الشك فيه إطلاقاً، فهو كتاب الله تعالى الحق المبين، الظاهر دلالاته، والذي أوحاه رب العالمين إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فالعلاقة الترابطية بين ما تضمنه القرآن من تفصيله لآفاق الكون المختلفة، وأحوال الإنسان، وإظهار حقيقة الكون، وحقيقة تفاصيل الطبيعة البشرية، فإن ذلك يؤكد أن هذا التلازم هو تلازم لا يمكن الفصل بينها، بل هما من مصدر واحد،

فهو من رب هذا الكون العظيم، ومنزل هذا الكتاب الكريم. فإن التعاضد بينهما والتلاؤم والتكامل يؤكد أنه كلام الله تعالى، الذي أوحى به إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، مما يوجب الإيمان والتصديق به.

ثم يقرر سبحانه وتعالى من خلال السؤال التقريري أنه كان يكفيهم شهادة الله تعالى على أن القرآن حق ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ أليس في شهادة الله تعالى كفاية لهم، فربكم على كل شيء شهيد، فلا يغيب عنه شيء من أحوال خلقه. فإن شهادته عَزَّ وجل على عباده كافية في مجازاة كل أحد بما يستحق، فهو الغني عن شهادة كل شاهد، فأعطت دلالة السياق الرحابة في استيعابها لشهادته عَزَّ وجل على أن القرآن حق، وشهادته على خلقه بما هم عليه حق ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ أليس في شهادة الله تعالى كفاية بعلمه عن دقائق أعمال عباده، فيجازيهم بما يستحقون، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. لتشمل مع العلم العتاب والزجر والتهديد على تطاولهم في الإنكار. فإنه سؤال يستثير العقل والعواطف نحو الإيمان، والاكتفاء بشهادته تبارك وتعالى.

ثم يختم اللهُ سبحانه وتعالى سورة فُصِّلَت بتقرير كفر المنكرين بالبعث، وأنه سبحانه وتعالى قد أحاط كل شيء بعلمه وقدرته، فقال تبارك وتعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ فاشتملت الآية الكريمة على أمرين عظيمين: الأول: تقريره عَزَّ وجل إنكار المنكرين للبعث ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ ﴾ فإنهم أنكروا الحياة الآخرة جملة وتفصيلا. بما يفيد التهديد والوعيد لهم. وقد ابتدأ ذلك بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ لإظهار الاهتمام بما بعده من بيان شأن الجاحدين المنكرين ليوم البعث، والمنكرين لحجج القرآن العظيم، ودعوة الرسول لهم صلى الله عليه وسلم، وقد أكد سبحانه وتعالى مريتهم بحرف التوكيد **(إن)** الملتحق بالضمير العائد إليهم ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ليؤكد به سبحانه وتعالى مريتهم في يوم البعث ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ ﴾ أي: في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ ﴾ بما يفيد كفرهم بالعودة إلى ربهم، وبالتالي أنكروا البعث، والحساب، والجزاء، فأنكروا الحياة الآخرة جملة وتفصيلا.

مما يفيد أن دلالة شكهم بالنفي في لقاء الله تعالى أكثر عمقاً وأرجح من حدوث اللقاء، وبالتالي غَلَّبُوا النفي على لقاء الله تبارك وتعالى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث، لأن جزمهم خَلَى عن الدليل الذي يقتضيه. فكان إطلاق الشك عليه تعريضاً بهم، بأن الأولى بهم أن يكونوا في

شك على الأقل[١] أو أن شكهم لا دليل لهم عليه، وإنما رغبة في المناكفة والتعالي بما يستوجب منهم وعليهم العودة إلى التفكر والتأمل للانتقال من الشك إلى الإيمان والتصديق، بناء على ما وجَّهَهم اللهُ تعالى إليه في الآيات السابقة.

ثم ينتقل البيان في ختام الآية الكريمة إلى تقرير إحاطة علمه وقدرته سبحانه وتعالى بكل شيء من غير استثناء، فقال عَزَّ وجل ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ وأعاد السياق حرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ ثم يليه حرف التأكيد **(إن)** لتأكيد ما بعده من بيان ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن ربكم ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ فهو الذي أحاط بجميع مخلوقاته علماً وقدرة، بما يفيد كمال التصرف فيها بما يشاء سبحانه وتعالى. وقد جمعت جملت ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ الاستيعاب الكامل لجميع خلقه بلا استثناء، والنفي من أن يخرج منه شيء عن إحاطته عَزَّ وجل. كما أفاد قوله تعالى ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ كمال الإحاطة التي استوعبت كمال القدرة، من الإنشاء والتدبير والعلم، والقهر والسلطان والتصرف. فكل شيء مخلوق لله تعالى، وهو المطلع والمتصرف فيه، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يغيب ولا يستتر عليه من خلقه شيء، فكل غائب على غيره من خلقه مكشوف ومعلوم وظاهر له سبحانه وتعالى، وكل شيء ممتنع على غيره من خلقه، لا يمتنع عليه عَزَّ وجل، بل تحت قهره وسلطانه. فاستوفى كمال وتمام الآية الكريمة عظيم وكمال الوصف لله تعالى، بما هو أهله حقيقة لا مراء ولا شك فيه.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة فصلت، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٨/١٠)